المعنى في خطبة قس بن ساعدة
بين تنوع الأسلوب والجرس الصوتي الموسيقي

د. مصطفى عبد الهادي عبد الستار محمد
الأستاذ المساعد في قسم أصول اللغة- كلية اللغة العربية بشبين الكوم
جامعة الأزهر

الملخص:

قس بن ساعدة الإيادي خطيب العرب وأحد حكمائها الذين دانوا بالحنيفية الإبراهيمية، ضرب به المثل في الفصاحة والبلاغة والبيان وقوة التأثير، وقد تركت خطبته في قومه يدعوهم إلى التوحيد وترك عبادة الأوثان أثرا كبيرا منذ إلقائها في سوق عكاظ إلى يومنا هذا، وتنوع أسلوبه بما يناسب المقام والمخاطبين معا، فجاء خطابه بين الخبر والإنشاء والتقرير والتأكيد والترغيب والترهيب وسرد قصص الغابرين وضرب الأمثلة في قالب دعوي وعظي يغلب عليه الحكمة والنصح والإرشاد، وخاطب عقولهم بالأدلة المادية؛ ليصل إلى هدفه في إقناع السامعين واستمالتهم وهي من واقع ما يشاهدونه من حولهم في الكون، من سماء وأرض وليل ونهار وبحار وأنهار، تحرك فيهم ملكة التفكير وترشدهم إلى الخالق بأسلوب بسيط خال من الأفكار الفلسفية.

وقد بنى قس خطبته على التوازن بين الجمل والتراكيب والعبارات والألفاظ الفصيحة الواضحة ذات المخارج الحسنة والدلالات الحسية المستعملة، والجمل القصيرة البسيطة في تركيبها التي لا يلتبس معناها على السامعين لطولها، معتمدا في ذلك على المحسنات البديعية من جناس وطباق وسجع ومقابلة بين المعاني والألفاظ، وقد جاءت بسيطة سهلة لا تكلف فيها، فأضفت جانبا موسيقيا في الأداء جذب انتباه السامعين وملك عليهم حسهم ووجدانهم، فضلا عما أدته من توضيح المعنى وتقويته.

الكلمات المفتاحية: قس/ الخطابة/ المعنى/ الجرس الصوتي/ الأسلوب.

(ISSN: 2536- 9555)

Abstract:

Quss ibn Sa'ida al-Iyadi was an orator of the Arabs and one of their sages who followed the Abrahamic Hanif religion. He became a symbol of eloquence, rhetoric, and impactful speech. His sermon to his people, in which he called for monotheism and the abandonment of idol worship, left a lasting impression from the time he delivered it at the Suq Ukaz market until today. His style varied to suit both the occasion and the audience, incorporating statements of fact, rhetorical questions, assertions, persuasion, encouragement, and warnings. He also narrated stories of past nations and used parables in a preaching tone dominated by wisdom, advice, and guidance. He appealed to their intellect with tangible evidence, drawing from their observations of the universe—such as the sky, earth, night, day, seas, and rivers—to awaken their reasoning and direct them toward belief in the Creator, using a simple approach free from philosophical complexity.

Quss structured his sermon with a balance of sentences, phrases, and clear, eloquent words with pleasant articulation and vivid sensory connotations. His sentences were short and simple in structure, avoiding ambiguity that might arise from excessive length. He relied on rhetorical devices such as alliteration, antithesis, and parallelism between meanings and words, all presented in an effortless and natural manner. This added a musical quality to his speech, capturing the attention of listeners and engaging their emotions, while also clarifying and reinforcing the meaning of his message.

Keywords: Quss/ Oratory/ Meaning/ Sound Rhythm/ Style

المقدمة

اهتم العرب على مر عصورهم التاريخية اهتماما بالغا بصناعة الكلام؛ حتى عرفوا بأنهم أهل الفصاحة والبلاغة والبيان، ولأن الكلام بصفة عامة يعدّ الوسيلة المثلى لنشر المبادىء السياسية والاجتماعية والعقائد الدينية والمذاهب الفكرية، فقد دعاهم ذلك إلى التمهر في الخطابة والمناظرة، وقد حظي فن الخطابة باهتمام كبير عند العرب في العصر الجاهلي، فنبغ فيهم خطباء مشهورون، وكانت الخطابة لسان الأشراف والسادة والرؤساء والحكماء من القبائل يفضلونها علي الشعر الذي قلل من شأنه تكسب الشعراء به علي الرغم من مكانته الكبيرة في أنفسهم، الأمر الذي أدى

إلى علوّ منزلة الخطابة بالنسبة للشعر، وأصبح لكلّ قبيلةٍ خطيب، وقد اشتهر أشراف القبائل بالخطابة، وكثر استخدامها في الإصلاح بين الناس والسلام أو الحثّ على القتال والتحريض علي الحرب، وذلك كثير عند العرب في جاهليتهم لكثرة ما كان يقع بينهم من منازعات وخصومات، أو في المفاخرة، والاعتزاز بالعشيرة، أو الدعوة إلي مكارم الأخلاق والبعد عن الرذائل والوثنية، أو التعزية في عظيم أو رئيس من رؤسائهم، أو في الوفادة على الأمراء والملوك بقصد الاستمالة والتأثير في النفوس.

ولا شك أن الخطابة كانت عندهم ملكة فطرية، يعبرون بها عن أفكارهم وآرائهم، ويصورون بها جميع ما يتعلق بشؤون حياتهم بأسلوب بليغ مؤثر، وقد كان من دواعي شهرة الخطابة عندهم وانتشارها بينهم، وكثرة مجالاتها أن أذواقهم الأدبية ولَّدت فيهم ملكة الخطابة؛ إذ كانوا هم أهل الفصاحة والبلاغة والبيان، وكثرة الحروب والخلافات التي كانت تقع بينهم وتفرقهم إلي قبائل وأحياء، بالإضافة إلى كونهم في الغالب أمة أمية يندر فيهم القراءة والكتابة فقد ألجأهم ذلك كله إلي الاستعانة باللسان دون الكتابة في أوضح صورة، أعني الخطابة، فتوسعوا في استخدامها، وأبدعوا في فنونها، واشتهر كثير من خطباء العرب في هذه الحقبة، منهم على سبيل المثال: خارجة بن سنان خطيب داحس والغبراء، وخويلد بن عمرو الغطفاني خطيب يوم الفجار، وأكثم بن صيفي، وقس بن ساعدة، وغيرهم كثير.

وقس بن ساعدة الإيادي هو خطيب العرب وأحد حكمائها الذين دانوا بالحنيفية الإبراهيمية، ضرب به المثل في الفصاحة والبلاغة والبيان وقوة التأثير، وقد تركت خطبته في قومه يدعوهم إلى التوحيد وترك عبادة الأوثان أثرا كبيرا منذ إلقائها في سوق عكاظ إلى يومنا هذا، ويكفيه تكريما وتشريفا اهتمام النبي صلى الله عليه وسلم به وبنصه الخطابي الدعوي التوحيدي فروى طرفا منه، مما أضفى على النص قداسة وتعظيما، وقد تواترت المصادر على روايته وقبوله لفظا ومضمونا، بل لم تخل مؤسسة تعليمية من دراسة هذا النص والنظر فيه والإشادة به، فعلى الرغم من طول أمده وتباعد فترته الزمنية التي انحدر إلينا منها ما زال هذا النص يحتفظ بسلاسة ألفاظه وفصاحتها وجمال أساليبه وبساطة تراكيبه ومبانيه ووضوح ألفاظه ومعانيه

(ISSN: 2536- 9555)

وسمو أغراضه ومقاصده مما سهل حفظه وتداوله كأنه صيغ بلغة عصرنا هذا لا في العصر الجاهلي.

والأساليب في خطبة قس متنوعة، تجلت فيها فصاحته وجمال بيانه وبراعة أسلوبه وقوة حجته بما يناسب المقام والمخاطبين معا، فجاء خطابه بين الخبر والإنشاء والتقرير والتأكيد والترغيب والترهيب وسرد قصص الغابرين وضرب الأمثلة في قالب دعوي وعظي يغلب عليه الحكمة والنصح والإرشاد، وخاطب عقولهم بالأدلة، ليصل إلى هدفه في إقناع السامعين واستمالتهم، وقد بنى قس خطبته على المحسنات البديعية من جناس وطباق وسجع ومقابلة بين المعاني والألفاظ، وتوازن بين الجمل والتراكيب والعبارات والألفاظ الفصيحة الواضحة ذات المخارج الحسنة، وقد جاءت بسيطة سهلة لا تكلف فيها، فأضفت عليها جانبا موسيقيا في الأداء جذب انتباه السامعين وملك عليهم حسهم ووجدانهم، فضلا عما أدته من توضيح المعنى وتقويته.

والأدلة التي ساقها قس على وجود الله ووحدانيته كلها أدلة مادية محسوسة من واقع الكون وما يقع عليه بصر قومه من حولهم، أو مما ينتفعون به في معاشهم، ولكونها مادية يحتاج إليها الإنسان ظلت ألفاظها الدالة عليها حية تنتقل من عصر إلى عصر بمدلولها دون أدنى تغيير أو تطور فيها، فاحتفظت الخطبة إلى عصرنا هذا بإرثها اللغوي الفصيح البسيط السهل، لا تنفك عن استعمالاتها اللغوية القديمة حتى الآن ولا حتى تراكيب جملها الموجزة بما تحمله من معان ومضامين. ولإدراك الخطيب أهمية الشعر وروايته عند العرب وتأثيره فيهم، فضلا عن كونه هو أيضا شاعر، أجمل ما نص عليه في خطبته، فكانت أشعاره عبارة عن عن خاتمة للخطبة لخص فيها الأفكار التي دعا إليها في النص.

ولقد عنى العلماء عناية كبيرة بهذه الخطبة لارتباطها الديني الروحي بالدين الإسلامي، فخطبة قس تلاقت في دعوتها وأهدافها مع دعوة الإسلام وأهدافه، فضلا عن التبشير برسالة الرسول صلى الله عليه وسلم ونبوته، وهي من هذه الناحية تمثل إرهاصا ملموسا في الجاهلية بالإسلام وتصويرا لحال العرب الجاهلية من الناحية العقدية الفاسدة التي حاربها قس ودعا إلى نبذها. وامتد هذا الاهتمام بهذا النص

الخطابي وبصاحبه إلى عصرنا الحالي فنشأت حوله دراسات متعددة اجتماعية وتاريخية وأدبية وخطابية تناولت فيها جوانب مختلفة، وانطلاقا من هذا الاهتمام والعناية بنص خطبة قس جاءت هذه الدراسة تحت عنوان(المعنى في خطبة قس بن ساعدة بين تنوع الأسلوب والجرس الصوتي الموسيقي)، والتي سلك فيها البحث المنهج التاريخي والمنهج الوصفي التحليلي، وقد اشتمل البحث على تمهيد ومبحث وخاتمة، **أما التمهيد ففيه دراسة ما يلي:**

أ- التعريف بقس بن ساعدة.

ب- الخطابة مفهومها وأهميتها.

ج- خطبة قس بين الرواية والتوثيق.

وأما المبحث فبعنوان (المعنى في خطبة قس بن ساعدة بين تنوع الأسلوب والجرس الصوتي الموسيقي)، **وفيه ثلاثة مطالب:**

المطلب الأول: أبرز السمات الأسلوبية في خطبة قس.

المطلب الثاني: تنوع الأساليب وصلتها بالمعنى في خطبة قس.

المطلب الثالث: الجرس الصوتي الموسيقي وصلته بالمعنى في خطبة قس.

وأما الخاتمة ففيها أهم النتائج التي توصل إليها البحث، يعقبها ثبت بأهم المصادر والمراجع.

التمهيد

أ. التعريف بقس بن ساعدة:

قس بن ساعدة الإيادي (ت: ٢٣ ق. هـ/ ٦٠٠ م):

قس بن ساعدة خطيب العرب في عصرها الجاهلي وأحد حكمائها المشهود لهم بالفصاحة والبلاغة والبيان. هو: قُسّ بن ساعِدة بن عمرو بن شَمِر- وقيل: عمرو بن عمرو- بن عَدِيّ بن مالك بن أيْدَعَان بن النَّمِر بن وائلة بن الطَّمَثَان بن عَوْذ مَناة بن يَقْدُم بن أفصى بن دُعْمِيّ بن إياد[1]، ينتهي نسبه إلى بني إياد، إياد بن نزار

[1] أبو جعفر البغدادي، محمد بن حبيب بن أمية بن عمرو الهاشمي، المحبر، تحقيق: إيلزة ليختن شتيتر، (الناشر: دار الآفاق الجديدة، بيروت)، ١٣٦؛ رضي الدين الحسن بن محمد بن الحسن بن حيدر

(ISSN: 2536- 9555)

بن معدّ بن عدنان[٢]، وإن اختلفوا في نسبه، فقيل فيه: قس بن ساعدة بن عمرو بن طارق بن شمر بن عدي بن مالك[٣]، وقال غير واحد: "قس بن ساعدة بن حذافة بن زفر، وقيل: حذافة بن زهير بن إياد بن نزار الإيادي"[٤].

وإياد التي ينتسب إليها قس بن ساعدة، ومنها ذلك الوفد الذي وفد على النبي صلى الله عليه وسلم، حي من معدّ، وهم باليمن وهو في الأصل اسم رجل هو: إياد ابن نزار بن معدّ[٥]، كما في نسب قس، قال الفارابي، ونقله الجوهري: "وإياد: حيّ

القرشي الصغاني، العباب الزاخر واللباب الفاخر، (ق س س)، (الكتاب مرقم آليا غير موافق للمطبوع)، ١٧٦؛ محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، أبو الفيض، الملقّب بمرتضى، الزَّبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، (ط م ث)، تحقيق: مجموعة من المحققين، (الناشر: دار الهداية، الكويت)، ٥/ ٢٩٥.

[٢] أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب الكلبي، نسب معد واليمن الكبير، تحقيق: ناجي حسن، (الناشر: عالم الكتب، مكتبة النهضة العربية الطبعة: الأولى، ١٤٠٨هـ- ١٩٨٨م)، ١/ ١٢٢- ١٢٥؛ محمد بن أبي بكر بن عبد الله بن موسى الأنصاري التِّلمساني المعروف بالبُرّي، الجوهرة في نسب النبي وأصحابه العشرة، تحقيق: محمد التونجي، (الناشر: دار الرفاعي للنشر والطباعة والتوزيع- الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م)، ٤٥٢/١، ٤٥٤؛ ابن الأثير، مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد، منال الطالب في شرح طوال الغرائب، تحقيق: محمود الطناحي، (الناشر: مكتبة الجانجي القاهرة- مطبعة المدني، مصر، بدون)،/ ١٣٨.

[٣] أحمد بن محمد بن إبراهيم، شهاب الدين أبو الحجاج الأشعري، التعريف بالأنساب والتنويه بذوي الأحساب، (الناشر: المكتبة الشاملة، الكتاب مرقم آليا غير موافق للمطبوع)، ٢٥؛ عبد القادر بن عمر البغدادي، خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، (الناشر: مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة: الرابعة، ١٤١٨هـ- ١٩٩٧م)، ٢/ ٩١.

[٤] أبو حاتم سهل بن محمد بن عثمان الجشمي السجستاني، كتاب المعمرين من العرب، وطرف من أخبارهم وما قالوه في منهى أعمارهم، (الناشر: مطبعة السعادة، مصر، الطبعة الأولى، ١٣٢٣هـ- ١٩٠٥م)،/ ٦٩؛ الميداني، أبو الفضل أحمد بن محمد بن إبراهيم النيسابوري، مجمع الأمثال، تحقيق: محمد محيى الدين عبد الحميد، (الناشر: دار المعرفة- بيروت، لبنان)، ١/ ١١١؛ البغدادي، خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، ٢/ ٩١.

[٥] أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي، المحكم والمحيط الأعظم، (أ ي د) عبد الحميد هنداوي، (الناشر: دار الكتب العلمية- بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢١هـ- ٢٠٠٠م)، ٩/ ٤٥٠؛

من مَعَدّ"[٦]، وذهب ابن دريد إلى القول بأن في العرب إيادين، إياد بن نزار، وإياد بن سود في الأزد، إياد بن سود بن الحجر بن عمرو بن مزيقياء بن عامر ماء السماء[٧].

وفي وصف قُسّ يذكر العلماء أنه كان سِبطا من أسباط العرب، صحيح النسب، فصيحا إذا خطب، ذا شيبة حسنة[٨]. على حد قول الجارود في وصفه قسا للنبي صلى الله عليه وسلم، وقد اشتهر قس بين الناس بالخطابة والنباهة والحلم والحكمة والفضل والفصاحة والبيان، فكان خطيب العرب وحكيمها، ولمقامه بينهم تتبعوا ما صدر عنه من أقوال وحكم مأثورة، وعرفوا له الفضل والسبق، فهو أول من قال: أمّا بعد، فصل الخطاب في كلام العرب، وأول من قال البيّنة على من ادعى واليمين على من أنكر، والتي أضحت عماد التقاضي، وأصل القضاء والفصل في الخصومات، وهو أيضا أول من اتكأ وهو يخطب على سيف أو عصا، وأول من علا على شرف، وأول من كتب: من فلان إلى فلان[٩].

محمد بن مكرم بن على جمال الدين ابن منظور، لسان العرب، (أ ي د)، تحقيق: اليازجي وجماعة من اللغويين، (الناشر: دار صادر– بيروت، الطبعة: الثالثة– ١٤١٤هـ)، ٣/ ٧٧؛ الزبيدي، تاج العروس، (أ ي د)، ٧/ ٣٩٧.

[٦] الفارابي، أبو إبراهيم إسحاق بن إبراهيم بن الحسين، معجم ديوان الأدب، تحقيق: أحمد مختار عمر، (أ ي د)، (طبعة: مؤسسة دار الشعب للصحافة والطباعة والنشر، القاهرة، عام النشر: ١٤٢٤هـ– ٢٠٠٣)، ٢/ ١٩٣؛ أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، (أ ي د)، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، (الناشر: دار العلم للملايين– بيروت، الطبعة: الرابعة ١٤٠٧هـ– ١٩٨٧م)، ٢/ ٤٤٣.

[٧] أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي، جمهرة اللغة، (أ ي د)، تحقيق: رمزي منير بعلبكي، (الناشر: دار العلم للملايين– بيروت، الطبعة: الأولى، ١٩٨٧م)، ١/ ٢٣٣؛ابن سيدة المحكم، (أ ي د)، ٩/ ٤٥٠؛ ابن منظور، لسان العرب، (أ ي د)، ٣/ ٧٧.

[٨] البيهقي، دلائل النبوة، ٢/ ١٠٧.

[٩] السجستاني، كتاب المعمرين من العرب،/ ٦٩؛ الميداني، مجمع الأمثال، ١/ ١١١؛ محمد بن القاسم بن محمد بن بشار، أبو بكر الأنباري، الزاهر في معاني كلمات الناس، تحقيق: حاتم صالح الضامن، (الناشر: مؤسسة الرسالة– بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٢هـ)، ٢/ ٣٥١؛ أبوهلال العسكري،

(ISSN: 2536- 9555)

وقد أضحى مضرب المثل عند العرب في أشعارهم وأمثالهم، فقالوا: أفصح من قس، وأبلغ من قس، وأوعظ من قس، **وقال الأعشى: (من الطويل)**

وأحلم من قس وأجرى من الذي ** بذي الغيل من خفان أصبح حارداً

وقال لبيد: (من الطويل)

وأخلفن قساً ليتني ولعلني ** وأعيا على لقمان حكم التدبر[١٠]

وأورد الجاحظ قول أبي إسحاق النجيرمي يمتدح خطباء بني إياد؛ إذ كانت الخطابة فيهم سمة بارزة امتازوا بها عن سائر العرب، **قال: (من الطويل)**

فإنك ضحاك إلى كل صاحب ** وأنطق من قس غداة عكاظها

فلم يضرب هذا الشاعر الإيادي المثل لهذا الخطيب الإيادي، إلا برجل من خطباء إياد، وهو قس بن ساعدة[١١].

وقد جرت الحكمة على لسان قس حتى صارت على كل لسان، فمن أقواله المأثورة: من عيرك شيئا ففيه مثله، ومن ظلمك يجد من يظلمه، وإن عدلت على نفسك عدل عليك من فوقك، وإذا نهيت عن شيء فابدأ بنفسك، ولا تجمع مالا تأكل، ولا تأكل مالا تحتاج إليه، وإذا أخرت فلا يكونن كنزك إلا فعلك، وكن عف العيلة،

الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري، الأوائل، (الناشر: دار البشير، طنطا، الطبعة: الأولى، ١٤٠٨هـ)،/ ٦٨؛ السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، تحقيق: فؤاد علي منصور، (الناشر: دار الكتب العلمية– بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ ١٩٩٨م)، ١/ ٣٩١.

[١٠] أبو عبيد الله محمد بن عمران المرزباني، معجم الشعراء، تحقيق: الأستاذ الدكتور ف. كرنكو، (الناشر: مكتبة القدسي، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان الطبعة: الثانية، ١٤٠٢هـ– ١٩٨٢م)،/ ٣٣٨؛ أبو بكر الأنباري، الزاهر في معاني كلمات الناس، ٣٥٢/٢؛ الميداني، مجمع الأمثال، ١/ ١١١، ٢٦٢، ٢/ ٣٥٧؛ أبو عباس أحمد بن عبد المؤمن بن موسى القَيْسي الشُّريشي، شرح مقامات الحريري، (الناشر: دار الكتب العلمية– بيروت الطبعة: الثانية، ٢٠٠٦م– ١٤٢٧هـ)، ٣/ ١٩٦.

[١١] الجاحظ، عمرو بن بحر بن محبوب، أبو عثمان، البيان والتبيين، (الناشر: دار ومكتبة الهلال، بيروت، عام النشر: ١٤٢٣هـ)، ١/ ٥٨.

مشترك الغنى، تسد قومك، ولا تشاور مشغولا وإن كان حازما، ولا جائعا وإن كان فهما، ولا مذعورا وإن كان ناصحا، ولا تدع فى عنقك طوقا لا يمكنك نزعه إلا بشق نفسك، وإذا خاصمت فاعدل، وإذا قلت فأقصر، ولا تستودعنّ سرك أحدا، فانك إن فعلت ذلك لم تزل وجلا، وكان المستودع بالخيار، إن جنى عليك كنت أول ذلك، وإن وفى لك كان الممدوح دونك[١٢]، وهو القائل: من فاته حسب نفسه لم ينفعه حسب أبيه[١٣].

وجريان الحكمة على لسانه أثر من آثار براعته في فن الخطابة واشتغاله بالدعوة إلى إصلاح الناس وإرشادهم، وقد ارتبط بهذه الوظيفة التي قام بها قس وظيفة أخرى على القدر ذاته من الأهمية والقيمة في المجتمع الجاهلي الذي عاش فيه خطيبنا، فقس كان معروفا بين العرب بأنه واحد من حكامها[١٤]، الذين اشتغلوا بالقضاء والفصل بين القبائل، فكان الناس يتحاكمون إليه فيما يقع بينهم من نزاعات وخصومات[١٥]، وهذا لاشك مظهر من مظاهر إشاعة السلم الاجتماعي والترابط القبلي الذي كان يقوم به قس باعتباره مصلحا ومحكما بين الناس في وسط مجتمع قبلي يكثر فيه الثارت والحروب لأبسط الأسباب.

---

[١٢] أبوهلال العسكري، الأوائل،/٦٨؛ ؛ أبوهلال العسكري، جمهرة الأمثال، (الناشر: دار الفكر– بيروت، بدون)، ٢٤٩؛ أبو أحمد الحسن بن عبد الله بن سعيد بن إسماعيل العسكري، المصون، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، (الناشر: مطبعة حكومة الكويت، الطبعة: الثانية، ١٩٨٤م)،/ ١٧٩؛ الشريشي، شرح مقامات الحريري، ٣/ ١٩٦.

[١٣] ابن عبد ربه الأندلسي، أبو عمر، شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد ربه، العقد الفريد، (الناشر: دار الكتب العلمية– بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٤هـ)، ٢/ ١٤٨، ١٤٩.

[١٤] أبو جعفر البغدادي، المحبر/ ١٣٢، ١٣٦.

[١٥] أحمد بن إبراهيم بن مصطفى الهاشمي، جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب، تحقيق: لجنة من الجامعيين، (الناشر: مؤسسة المعارف، بيروت، بدون)، ٢/ ١٩؛ محمد سعيد، قس بن ساعدة، (الناشر: جامعة سوسة، Bulletin d’études orientales Tome LX | mai 2012 Année 2011),/ 98.

(ISSN: 2536- 9555)

ومما يكشف عن هذا الجانب الاجتماعي في سيرة قس وحياته، ما نسبوه إليه فيما سبق من كلام أنه أول من قال: البيّنة على من ادعى واليمين على من أنكر[١٦]، ونقلوا عنه أنه قال: لأقضين بين العرب بقضية لم يقض بها أحد قبلي ولا يردّها أحد بعدي: أيّما رجل رمى رجلا بملامة دونها كرم فلا لوم عليه، وأيما رجل ادّعى كرما دونه لؤم فلا كرم له. والمعنى أن أولى الأمور بالإنسان خصال نفسه، وإن كان كريما وآباؤه لئام لم يضره ذلك، وإن كان لئيما وآباؤه كرام لم ينفعه ذلك[١٧].

وكما عرف قس بين العرب بالخطابة عرف أيضا بالشاعرية، وإن طغت الأولى على الثانية، فهو من الخطباء القلائل الذي اشتهروا بين العرب بالخطابة وقرض الشعر، ولا شك أن من يجمع بين الخطابة والشعر في كلامه قليل، فالخطباء منهم من يكون شاعرا ويكون إذا تحدث أو وصف أو احتج بليغا مفوها بينا، وربما كان خطيبا فقط وبيّن اللسان فقط، فمن الخطباء الشعراء الأبيناء الحكماء قس بن ساعدة الإيادي[١٨]. ومن أشعاره في وصية له وجدوها في صحيفة تحت رأسه مكتوب فيها:

(من البسيط)

يَا نَاعِيَ الْمَوْتِ وَالْأَمْوَاتُ فِي جَدَثٍ ** عَلَيْهِمُ مِنْ بَقَايَا ثَوبِهِمْ خِرَقُ
دَعْهُمْ فَإِنَّ لَهُمْ يَوْمًا يُصَاحُ بِهِمْ ** كَمَا يُنَبَّهُ مِنْ نَوْمَاتِهِ الصَّعِقُ
حتَّى يَجِيءَ بِحالٍ غَير حالِهِمُ ** **خَلْقٌ مَضَوا ثُمَّ ماذا بَعدَ ذاكَ لَقوا**
مِنْهُمْ عُرَاةٌ وَمَوْتَى فِي ثِيَابِهِمُ ** **مِنْهَا الْجَدِيدُ وَمِنْهَا الْأَوْرَقُ الْخَلَقُ**[١٩]

---

[١٦] أحمد بن عبد الوهاب بن محمد، شهاب الدين النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، (الناشر: دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣هـ)، ٢/ ١١٩.

[١٧] ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، ٢/ ١٤٩، ٣/ ٣٥٨.

[١٨] الجاحظ، البيان والتبيين، ١/ ٦٠.

[١٩] أبو حاتم السجستاني، كتاب المعمرين من العرب،/ ٧٠، ٧١؛ أبو بكر الأنباري، الزاهر في معاني كلمات الناس،٢/ ٣٥٢ البيهقي، دلائل النبوة، ٢/ ١٠٤؛ أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة، تحقيق: عادل عبد الموجود وآخر، (الناشر: دار الكتب العلمية– بيروت، الطبعة: الأولى– ١٤١٥هـ)، ٥/ ٤١٣.

وهو القائل أيضا: (من الخفيف)

هَـــاجَ لِلْقَلْـــبِ مِـــنْ جَـــوَاهُ ادِّكَـــارُ ** وَلَيَـــــالٍ خِلَالَهُـــــنَّ نَهَـــــارُ
وَنُجُـــــومٌ يَحُثُّهَـــــا قَمَـــــرُ اللَّيْـــــلِ ** وَشَـــمْسٌ فِـــي كَـــلّ يـــوم تـــدار
ضـــوؤها يَطْمِـــسُ الْعُيُـــونَ وَرِعَـــادٌ ** شَـــدِيدٌ فِـــي الْخَـــافِقَيْنِ مُطَـــارُ
وَغُـــــلَامٌ وَأَشْـــــمَطٌ وَرَضِـــــيعٌ ** كُلُّهُـمْ فِـي التـراب يومـا يـزار[٢٠]

وهو القائل: (من الطويل)

هل الغيث معطى الأمن عند نزوله ** بحال مسيء في الأمور ومحسن
ومـا قـد تـولَّى فهـو قـد فـات ذاهبـا ** فهـل ينفعنِّـي ليتنـي ولـو أنَّنـي[٢١]

وقس بن ساعدة الإيادي هو واحد من العرب المعمرين، الذين عاشوا عمرا مديدا، فقيل: عاش مائة وثمانين سنة، وقيل: ثلاث مائة وثمانين سنة، وقيل: عاش قس ستمائة سنة، وقيل: سبعمائة، حتى أدرك سمعان رأس حواري نبي الله عيسى عليه السلام[٢٢]، ولا عبرة بالطبع لما زعمه بعض الإخباريين من طول عمر قس أو من كان على شاكلته من المتحنفين؛ لأنه من عادتهم إطالة عمر هؤلاء وأمثالهم من الرجال البارزين الظاهرين، ليكون ذلك مناسبًا لما يجيء في أخبارهم من الحكم المنسوبة إليهم، وهي فكرة عامة نجدها عند غير العرب أيضًا، ولذلك نجد صورة

---

[٢٠] البيهقي، دلائل النبوة، ٢/ ١٠٧

[٢١] أبوحاتم السجستاني، كتاب المعمرين من العرب،/ ٦٩؛ ابن حجر العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة، ٥/ ٤١٢.

[٢٢] البيهقي، دلائل النبوة، ٢/ ١٠٥؛ أبو حاتم السجستاني، كتاب المعمرين من العرب،/ ٦٩؛ ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله، ابن عساكر، تاريخ دمشق، تحقيق: عمرو بن غرامة العمروي، (الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، عام النشر: ١٤١٥هـ- ١٩٩٥م)، ٣/ ٤٣٠؛ الميداني، مجمع الأمثال، ١/ ١١١؛ أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، البداية والنهاية، تحقيق: علي شيري، (الناشر: دار إحياء التراث العربي، الطبعة: الأولى ١٤٠٨هـ- ١٩٨٨م)، ٢/ ٢٩١؛ الشريشي، شرح مقامات الحريري، ١٩٧/٣؛ البغدادي، خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، ٢/ ٩١.

(ISSN: 2536- 9555)

الحكماء والفلاسفة في الغالب على صورة شيوخ أصحاب لحى طويلة بيض ورؤوس جللها الشيب؛ لأن هذه من علامات الحكمة والتفكير[٢٣].

ولا يمكن على وجه التحديد أن نعين الفترة الزمنية التي ولد فيها قس، في أي سنة، ولكن من الممكن أن نقول: إن قسا عاش في تلك الفترة الزمنية التي أعقبتها فترة ظهور الإسلام، ولد وعاش قبيل الإسلام، وكان واحدا من هؤلاء الذين بشروا بالإسلام، وشاهده النبي صلى الله عليه وسلم قبل البعثة، يركب جملا في سوق عكاظ يعظ الناس ويخطب فيهم.

مات قس قبيل البعثة النبوية، سنة (٢٣ ق. هـ ٦٠٠ م)، وقد أدركه النبي صلى الله عليه وسلم قبيل البعثة، فرآه على جمل أورق يعظ الناس بكلام مونق، حفظ بعضا منه، وقد دعا له مترحما عليه، فقال: (يرحم الله قُساً إني لأرجو أن يبعث يوم القيامة أمة وحده)[٢٤]؛ لأنه كان على الحنيفية منفردا بدينه عن دين قومه، والأمة: المنفرد بدين، وفي وصف صلى الله عليه وسلم قسّا بالأمة– مع أن الأمة تطلق على الجماعة– دلالة على تكريم قس وتشريفه فهو في وحدته وانفراده بدينه بمنزلة الجماعة[٢٥]. وفي قرية (رُوحِين) وهي قرية في جبل لُبْنان، قريب من حلب، وفي لِحْف الجبل مشهد عظيم يزار، يقال: إن فيه قبر قُسّ بن ساعدة الإيادي[٢٦].

---

[٢٣] جواد علي، المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام، (الناشر: دار الساقي، الطبعة: الرابعة ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م)، ١٢/ ٣٨.

[٢٤] البيهقي، دلائل النبوة، ٢/ ١٠٥؛ ابن دُرُسْتَوَيْه، أبو محمد، عبد الله بن جعفر بن محمد، تصحيح الفصيح وشرحه، تحقيق: محمد بدوي المختون، (الناشر: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، عام النشر: ١٤١٩هـ– ١٩٩٨م)،/ ٣٦٤، ٣٦٥؛ ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر، ١/ ٦٨.

[٢٥] ابن الأثير، منال الطالب في شرح طوال الغرائب،/ ١٤٤؛ ابن درستويه، تصحيح الفصيح وشرحه،/ ٣٦٤، ٣٦٥.

[٢٦] ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله، معجم البلدان، (الناشر: دار صادر، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٩٩٥م)، ٣/ ٧٦؛ الصاغاني، التكملة والذيل والصلة لكتاب تاج اللغة وصحاح العربية، (ر و ح)، تحقيق: عبد العليم الطحاوي، وآخرين، (الناشر: مطبعة دار الكتب، القاهرة)، ٢/ ٣٧؛ علي بن أبي بكر بن علي الهروي، أبو الحسن، الإشارات إلى معرفة الزيارات،

ديانة قس بن ساعدة:

يعد قسًا واحدًا من هؤلاء الذين عرفوا بين العرب في الجاهلية بالموحدين المتحنفين، الذين كانوا على دين إبراهيم عليه السلام، آمنوا بعقيدة التوحيد، فللكون إله واحد غير ما عليه العرب من شرك ووثنية، كما آمنوا بالبعث بعد الموت والحساب والجزاء، فقس بن ساعدة كان من هؤلاء النفر القليلين في جزيرة العرب الذين تركوا عبدة الأوثان وخالفوا أقوامهم، وقد حفظ لنا الإخباريون أسماء بعض هؤلاء، كعبد المطلب بن هاشم، وورقة بن نوفل، وزيد بن عمرو بن نفيل بن عبد العزى، الذي اعتزل الأوثان، واجتنب أكل ما يذبح على الأنصاب[٢٧]، وحرم على نفسه الخمر والسكر والأزلام[٢٨]، فقس على حد ما ذهب إليه بعض القدامى هو أول من أظهر التوحيد بمكة وآمن بالبعث في الجاهلية، مع ورقة بن نوفل، وزيد بن عمرو بن نفيل[٢٩].

ولكن مع وضوح عقيدة التوحيد عند قس فقد اختلف في ديانته التي كان عليها، فمنهم من ذهب إلى أن قسا كان يدين بالحنيفية الإبراهيمة ملة نبي الله إبراهيم عليه السلام، فالحنيفية ديانة التوحيد ظلت باقية في جزيرة العرب لم تندرس بالكلية، وإن قل معتنقوها في زمن قس بن ساعدة والذي كان واحدا من هؤلاء الذين تمسكوا بها،

(الناشر: مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣هـ)،/ ١٦؛ عبد المؤمن بن عبد الحق، ابن شمائل القطيعي البغدادي، الحنبلي، صفيّ الدين، مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، (الناشر: دار الجيل، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٢هـ)، ٦٣٨/٢؛ الفيروزآبادي، القاموس المحيط، (ر و ح)،/٢٢١.

[٢٧] محمد الخضر حسين، موسوعة الأعمال الكاملة، جمع وضبط: علي الرضا الحسيني، (الناشر: دار النوادر، سوريا، الطبعة: الأولى، ١٤٣١هـ- ٢٠١٠م)، ٣/ ٤٥؛ عبد الله بن الطيب المجذوب، المرشد إلى فهم أشعار العرب، (الناشر: دار الآثار الإسلامية- وزارة الإعلام الصفاة- الكويت، الطبعة: الثانية سنة ١٤٠٩هـ- ١٩٨٩م)، ٢/ ٣٧٢.

[٢٨] أبوجعفر البغدادي، المحبر،/ ٢٣٧، ٢٣٨.

[٢٩] أبوهلال العسكري، كتاب الأوائل،١/ ٦٧؛، أبو حاتم السجستاني، كتاب المعمرين من العرب،/ ٦٩؛ القلقشندي، نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، تحقيق: إبراهيم الإبياري، (الناشر: دار الكتاب اللبنانين، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤٠٠هـ- ١٩٨٠م)،/ ٩٥.

(ISSN: 2536- 9555)

كورقة بن نوفل، وزيد بن عمرو بن نفيل، الذي كان يسند ظهره إلى الكعبة، ويقول: أيها الناس هلموا إلي، فإنه لم يبق على دين إبراهيم أحد غيري، و أمية بن أبي الصلت، وزهير بن أبي سلمى، عبيد الله بن جحش عثمان بن الحُوَيْرِث، أسعد بن كرب الحميري، وغيرهم(٣٠).

وذهب آخرون إلى أن قسا تنصَّر وترهبن، حتى قيل فيما سبق أنه أدرك شمعون أحد حواري النبي عيسى عليه السلام(٣١)، وذكر الجارود أنه كان يَتْبع السُّيَّاح على منهاج المسيح، لا يفتر من الرهبانية(٣٢)، وقال الجوهري، وغيره: كان أسقف نجران(٣٣)، وذكر الأستاذ جواد على أننا نلاحظ أن أهل الأخبار لم يكونوا على بينة تامة، وعلم واضح بأحوال "الحنيفية"؛ وبآرائها، وقواعد أحكامها وأصولها، وأنهم خلطوا في بعض الأحيان فيما بينها وبين الرهبنة، ولا سيما: "رهبنة النصرانية"، فأدخلوا فيها من يجب إخراجهم عنها؛ لأنهم: كانوا نصارى، على ما يذكره نفس أهل الأخبار في أثناء تحدثهم عنهم. ومن هؤلاء: "قس بن ساعدة الإيادي(٣٤).

والرأي الذي أميل إليه أن قسا رجل من العرب عرف بتدينه على الحنيفية التي ظلت آثارها باقية في جزيرة العرب وإن قل معتنقوها مع تقادم الزمن، فلم يبق منهم سوى عدد قليل كان قس واحدا منهم، ويدلك على ذلك أن بعض المصادر ذكرت أن

---

(٣٠) أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أبى بكر أحمد الشهرستاني، الملل والنحل، (الناشر: مؤسسة الحلبي، بدون)، ٣/ ٨٦؛ علي بن (سلطان) محمد، أبو الحسن نور الدين الملا الهروي القاري، أدلة معتقد أبي حنيفة في أبوي الرسول عليه الصلاة والسلام، تحقيق: مشهور بن حسن بن سلمان، (الناشر: مكتبة الغرباء الأثرية– السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٣هـ– ١٩٩٣هـ)،/ ١٢٨؛ محمد إبراهيم الفيومي، تاريخ الفكر الديني الجاهلي، (الناشر: دار الفكر العربي، الطبعة: الرابعة ١٤١٥هـ-١٩٩٤)،/ ٣٦٣.

(٣١) ابن الأثير، منال الطالب في شرح طوال الغرائب،/ ١٣٧.

(٣٢) البيهقي، دلائل النبوة، ٢/ ١٠٥؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ٢/ ٢٩٢.

(٣٣) الجوهري، الصحاح، (ق س س)، ٣/ ٩٦٣؛ ابن منظور، لسان العرب (ق س س)، ١٧٥/٦؛ الزبيدي، تاج العروس، (ق س س)، ١٦/ ٣٧٤.

(٣٤) جواد على، المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام، ١٢/ ٢٩؛ إبراهيم الفيومي، تاريخ الفكر الديني الجاهلي،/ ٣٦٠.

وفد بكر بن وائل لما قدموا على النبي صلى الله عليه وسلم سألوه عن قس بن ساعد فأجابهم النبي بقوله: "لَيْسَ ذَاكَ مِنْكُمْ ذَاكَ رَجُلٌ من إياد تحنف في الجاهلية فوافى عكاظ والنَّاس مُجْتَمِعُونَ فكلَّمهم بِكَلَامِهِ الَّذِي حُفِظَ عَنْهُ"(٣٥).

أما المسيحية فقد كانت من ناحية التأثير في العرب على أطراف جزيرة العرب، ولم تتوغل فيها توغل البداوة بين ساكنيها؛ لذا لم يتأثر العرب في معظمهم بها، ومما يدلل على ذلك شيوع الوثنية فيهم، كما لا يمنع من أن يكون قس– وهو على الحنيفية– من خلال جولاته في الشام حتى قيل: إن قبره هناك قد تعرف على المسيحية من معتنقيها في الشام، أو من خلال الاطلاع والقراءة في كتبهم، ولعل في لبسه المسوح وزهده أو رهبنته على هيئة النصارى كان تشبها بهم، فقد مال بعض العرب إلى الرهبنة تأثرا بالمسيحية، حتى قيل إن وادي القرى امتلأ بالزهاد والنساك(٣٦). يقول جواد علي: "ويلاحظ أن الإخباريين ينسبون إلى عدد من هؤلاء الأحناف لبس المسوح، مما يشير إلى أنهم كانوا قد تأثروا بالرهبان المتقشفين وبالزهاد النصارى الناسكين، فأخذوا عنهم هذه الطريقة التي أشير إليها في القرآن الكريم وفي الحديث"(٣٧).

وكان قيصر الروم يعرف قدر قس ومقامه، فكان يحتفي به ويكرمه إذا وفد عليه زائرا، وسأله قيصر ذات مرة: ما أفضل العقل؟ قال: معرفة المرء نفسه، قال: فما أفضل العلم؟ قال: وقوف المرء عند علمه، قال: فما أفضل المروءة؟ قال: استبقاء

(٣٥) أبو عبد الله محمد بن سعد، المعروف بابن سعد، الطبقات الكبرى، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، (الناشر: دار الكتب العلمية– بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٠هـ– ١٩٩٠م)، ١/ ٢٣٩؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ٥/ ١٠٨؛ محمد بن يوسف الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، تحقيق: عادل عبدالموجود، وآخر، (الناشر: دار الكتب العلمية بيروت– لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٤هـ– ١٩٩٣م)، ٦/٢٨١؛ ابن عساكر، تاريخ دمشق، ١٠/٣٠٦.

(٣٦) توفيق برو، تاريخ العرب القديم، (الناشر: دار الفكر، الطبعة: إعادة الطبعة الثانية ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م)،/ ٣٠٨.

(٣٧) جواد علي، المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام، ١٢/ ٣٧.

(ISSN: 2536- 9555)

الرجل ماء وجهه، قال: فما أفضل المال؟ قال: ما قضي به الحقوق[٣٨]. فلعل زياراته هذه إلى الشام ودخوله واحتفاء قيصر رأس المسيحية في الشام به على هذا النحو هو ما حمل بعضهم إلي نسبته إلى المسيحية على أنها كانت تمثل ديانة التوحيد في الشام، وكأن العرب لم يتصلوا بعقيدة التوحيد قبل المسيحية ولم يعرفوا ديانة جدهم إبراهيم عليهم السلام!.

وساعد في عزوهم إياه إلى المسيحية أن خطيبا يحمل اسم (قس)، ومن يسمع هذا الاسم من أول وهلة يظن أنه كان قسيسا يدعو إلى المسيحية، واسم قس من حيث شيوعه بين أسماء العرب وأعلامها لا نجد أحدا من العرب في الجاهلية تسمى بهذا الاسم، ومن هنا يتبادر إلى الذهن سؤال مؤداه أنه من المحتمل أن يكون لفظ قس ليس علما بل هو كنية أطلقت على الرجل لتدينه وانتقاله أكثر من مرة إلى مركز التدين المسيحي في الشام، أو كما قيل إنه كان قسيسا على دين المسيحية. ويجاب عن ذلك أن قسا كان على الحنيفية، يدين بدين نبي الله إبراهيم عليه السلام، أما عن هذه الاحتمالات فمردود عليها بما يلي:

١- إذا كان هذا الرجل حمل لقب (قس) فلماذا هو بعينه دون غيره من المتحنفين المعاصرين له أو من كانوا من قبله يحمل هذا اللقب؟، علما بأن المسيحية كانت في جنوب الجزيرة العربية، وعلى أطرافها الشمالية، فلماذا أطلق عليه هذا اللقب دون سواه ؟!، ومن ثم فإن انفراده بهذه التسمية مع وجود غيره من المتحنفين لم ينسحب عليهم هذا اللقب يدل على أن هذا الاسم لا علاقة له بالديانة المسيحية، وإن كانت التسمية نادرة بين العرب.

٢- أن اللغة لا ترجح أن يكون هذا لقبا له لكونه قسيسا، إذ القَس لقبا بفتح القاف: رئيس من رؤساء النصارى في الدين والعلم، وكذلك القِسيس[٣٩]، وخطيبنا قس بن

---

[٣٨] أبو علي القالي، إسماعيل بن القاسم بن عيذون بن هارون بن عيسى، الأمالي، تحقيق: محمد عبدالجواد الأصمعي، (الناشر: دار الكتب المصرية، الطبعة: الثانية، ١٣٤٤هـ- ١٩٢٦م)، ٢/ ٣٧؛ الشُّريشي، شرح مقامات الحريري، ٣/ ١٩٥؛ الملا الهروي القاري، شرح الشفا، (الناشر: دار الكتب العلمية- بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢١هـ)، ١/ ٢٠٩.

[٣٩] الجوهري، الصحاح، (ق س س)، ٣/ ٩٦٣؛ ابن منظور، لسان العرب، (ق س س)، ١٧٣/٦.

ساعدة تتفق المصادر اللغوية، والمصادر التي ترجمت له، أو أوردت طرفا من أخباره على أنه بضم القاف مما ينتفي معه وقوع التصحيف في ضبط الاسم، بل إن هذه المصادر كانت على إدراك تام للفرق بين هذا الاسم الذي بالضم، واللقب بالفتح أو الكسر، الذي أطلق على رجل الدين المسيحي، وهذا الإدراك ينبع من أن قس بن ساعدة لم يكن قسيسا بين الناس، ولم يكن على النصرانية، وتفريقهم بين الضبطين، وإطباقهم على روايته بالضم لا غير، وعدم ورود خلاف فيه يدل على ذلك(٤٠).

وإذا رجعنا إلى مصادر اللغة في اشتقاق اسم قس بن ساعدة لوجدنا ما يدل فيها على أن ما كان قس يقوم به في مجال الدعوة بين الناس وعلاقة ذلك بالتسمية أو بتلقيبه بهذا اللقب، فمادة (ق س س) في معظم مشتقاتها تدل على تتبع الشئ وطلبه، ففيها: القس: تتبع الشئ وطلبه، وقولهم إن القس النميمة هو من هذا؛ لأنه يتتبع الكلام ثم ينمه، ويقال للدليل الهادي: القسقاس، وسمي بذلك لعلمه بالطريق وحسن طلبه واتباعه له، وقسَّست أصوات القوم بالليل: إذا تتبعها(٤١)، والقُسُس: العقلاء(٤٢).

فقس بن ساعدة كان خطيبا متجولا بين قبائل العرب وأسواقها عاقلا فطنا حكيما حكما بين المتخاصمين، عالما بأحوال الناس وأخبارهم يدعوهم إلى الحنيفية، إلى التوحيد، وراج أمره ذلك بين الناس، ومن هنا جاءت هذه التسمية بهذا الاسم، أو لقبوه به حتى اشتهر به فغلب اللقب على اسمه الذي لا نعرفه، وإن كانت معتقداته في التوحيد والدعوة تقترب من عقيدة النصارى آنذاك فلا يعني هذا أنه كان واحدا منهم لمجرد التشابه اللفظي بين اللقبين.

ب- الخطابة مفهومها وأهميتها:

تعريف الخطابة:

الخطابة في اللغة: مصدر خطب يخطب خطابة، قالوا: خطب الخطيب على المنبر خُطْبَة بالضم. وقيل: فلان خطيب القوم إذا كان هو المتكلم عنهم، ورجل

(٤٠) محمد سعيد، قس بن ساعدة،/ ٨١، ٨٢.

(٤١) ابن فارس، مقاييس اللغة، (ق س س)، ٥/ ٩؛ الجوهري، الصحاح، (ق س س)، ٩٦٣/٣.

(٤٢) ابن منظور، لسان العرب، (ق س س)، ٦/ ١٧٤.

(ISSN: 2536- 9555)

خطيب: حسن الخُطبة، والجمع خطباء،. وخَطُب بالضم خطابة: صار خطيبا، وخاطبه بالكلام مُخاطَبة وخِطاباً، والخِطاب والمُخاطَبة: مراجعة الكلام، وقد خاطَبه بالكلام مخاطبة وخِطاباً، وهما يتخاطبان[٤٣]، وفي القرآن الكريم: "وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ"[٤٤]. قالوا في معناه: هو أَن يحكم بالبيّنة أَو اليمين؛ وقيل: معناه أَن يفصل بين الحق والباطل، ويُمَيِّز بين الحكم وضدّه؛ وقيل: فَصْل الْخِطاب أَمّا بَعْدُ؛ وداود، عليه السلام، أوّل مَنْ قال: أَمَّا بَعْدُ، ومعنى أَمَّا بعدُ، أَمَّا بَعْدَ ما مضى من الكلام، فهو كذا وكذا[٤٥].

فالخاء والطاء والباء ههنا أصول ثلاثة تدل مجتمعة على وقوع الكلام بين اثنين، ومنه أيضا: الخِطبة فِي النكاح الطَّلَب أَن يُزَوَّج والخُطْبَة: الكلام المخطوب به. والخَطْب: الأمر يقع، أو الحال والشأن، عظيم، أو يسير؛ وإنما سُمّي بذلك لما يقع فيه من التخاطب والمراجعة[٤٦].

والخطابة فن من فنون النثر الأدبي، عرفت في الاصطلاح بأنها: فن إقناع السامع أو القارئ بما يعتقده الخطيب في أي أمر من الأمور. فحدها أنها المفيدة للإقناع[٤٧]، وقيل: هي خطاب من فصيح نابه الشأن يلقيه على جماعة في أمر ذي

---

[٤٣] ابن منظور، لسان العرب، (خ ط ب)، ١/ ٣٦١؛ الجوهري، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، (خ ط ب)، ١/ ١٢١؛ الزَّبيدي، تاج العروس، ٢/ ٣٧٢.

[٤٤] سورة ص، الآية: ٢٠.

[٤٥] الأزهري، أبو منصور محمد بن أحمد الهروي، تهذيب اللغة، (خ ط ب)، تحقيق: محمد عوض مرعب، (الناشر: دار إحياء التراث العربي– بيروت، الطبعة: الأولى، ٢٠٠١م)، ٧/ ١١٢؛ أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي، البحر المحيط في التفسير، تحقيق: صدقي محمد جميل، (الناشر: دار الفكر– بيروت، الطبعة: ١٤٢٠هـ)، ٩/ ١٤٦؛ ابن منظور، لسان العرب، (خ ط ب)، ١/ ٣٦١.

[٤٦] أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، معجم مقاييس اللغة، (خ ط ب)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، (الناشر: دار الفكر، عام النشر: ١٣٩٩هـ– ١٩٧٩م.)، ٢/ ١٩٨.

[٤٧] رزق الله بن يوسف بن عبد المسيح بن يعقوب شيخو، مجاني الأدب في حدائق العرب، (الناشر: مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت عام النشر: ١٩١٣م)، ١/ ١٣١.

بال[٤٨]، وذهب أبو إسحاق الزجاج إلى أن الخُطبة عند العرب هي: الكلام المنثور المُسَجَّع، ونحوه[٤٩]. وهي عند الجرجاني: قياس مركب من مقدمات مقبولة، أو مظنونة، من شخص معتقد فيه[٥٠].

وعرفها الكفوي بأنها: كلمات تتضمن طلب شيء، لكنها في طلب النساء بالكسر، وفي غيرها بالضم، والفعل في الكل من حد (طلب)[٥١]. وذكر ابن الأنباري أن الخطبة اسم لما له أول وآخر بمنزلة الرسالة[٥٢]، وفي التَّهْذِيب: الخُطْبة، مثل الرسالة، التي لها أَوَّل وآخِر[٥٣].

والرسائل والخطب متشاكلتان من حيث كونهما كلام منثور لا يلحقه وزن ولا قافية، وهما أيضا قد يتشاكلان من جهة الألفاظ والفواصل؛ فألفاظ الخطب تشبه ألفاظ الرسائل فى السهولة والعذوبة والوضوح؛ وكذلك فواصل الخطب، مثل فواصل الرسائل، فيدخل فيما السجع ولا فرق بينهما إلا أن الخطبة تعتمد على مشافهة الجمهور بها، وأما الرسالة فتكتب ويرسل بها إلى شخص ما؛ ولأنها كليهما فن منثور فالرسالة يمكنك أن تحولها إلى خطبة، وكذا الخطبة إلى رسالة، فى أيسر كلفة؛ ولا

---

[٤٨] الهاشمي، جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب، ٢/ ١٦.

[٤٩] ابن منظور، لسان العرب، (خ ط ب)، ١/ ٣٦١؛ الزبيدي، تاج العروس، (خ ط ب)، ٣٧٢/٢.

[٥٠] علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني، كتاب التعريفات، تحقيق: جماعة من العلماء بإشراف الناشر، (الناشر: دار الكتب العلمية بيروت– لبنان، الطبعة: الأولى ١٤٠٣هـ–١٩٨٣م)،/ ٩٩.

[٥١] أيوب بن موسى الحسيني القريمي الكفوي، أبو البقاء، الكليات، معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، تحقيق: عدنان درويش، وآخر، (الناشر: مؤسسة الرسالة– بيروت، بدون)،/ ٤٣٣.

[٥٢] أبو بكر، محمد بن القاسم بن محمد بن بشار الأنباري، المذكر والمؤنث، تحقيق: محمد عبد الخالق عضيمة، (الناشر: مصر– وزارة الأوقاف– المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية– لجنة إحياء التراث، سنة النشر: ١٤٠١هـ– ١٩٨١م)، ٢/ ٢٥٩.

[٥٣] الأزهري، تهذيب اللغة، (خ ط ب)، ٧/ ١١٢؛ ابن منظور، لسان العرب، (خ ط ب)، ٣٦١/١.

(ISSN: 2536- 9555)

يتهيّأ مثل ذلك فى الشعر من سرعة قلبه وإحالته إلى الرسائل إلا بكلفة؛ وكذلك الرسالة والخطبة لا يجعلان شعرا إلا بمشقّة[٥٤].

والخطابة أبعد غورا، وأقدم فنا عند العرب من الرسائل (الكتابة)، فالخطابة عرفت منذ العصر الجاهلي، أما الرسائل فعرفتها العرب بعد التدرج في الحضارة والمدنية بفضل الإسلام؛ لذا كانت الخطب في التراث الأدبي العربي من مستودعات سر البلاغة، ومجامع الحكم، فبها تفاخرت العرب في مشاهدهم، وبها نطقت الخلفاء والأمراء على منابرهم، وبها يتميز الكلام، كما بها أيضا يخاطب الخاص والعام، وعلى منوال الخطابة نسجت الكتابة، وعلى طريق الخطباء. مشت الكتاب[٥٥]. والغرض منها ترغيب الناس فيما ينفعهم من أمور معاشهم ومعادهم، كما يفعله الخطباء والوعاظ"[٥٦].

وقد حظي فن الخطابة باهتمام كبير عند العرب في العصر الجاهلي، فنبغ فيهم خطباء مشهورون بوضوح الدلالة والبيان عما في أنفسهم، مما جعل الأسماع والقلوب تميل إليهم، ويعظم في الناس مقامهم، ويشيع في الآفاق ذكرهم، أمثال: خارجة بن سنان خطيب داحس والغبراء، وخويلد بن عمرو الغطفاني خطيب يوم الفجار، وأكثم بن صيفي، وعامر بن الظّرب، ولبيد بن ربيعة، وسهيل بن عمرو الأعلم، يكنى أبا يزيد، وكان عظيم القدر، شريف النفس، صحيح الإسلام. وكان عمر قال للنبي صلّى الله عليه وسلم: يا رسول الله، انزع ثنيتيه السفليين حتى يدلع لسانه فلا يقوم عليك خطيبا أبدا. فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلم: «لا أمثل فيمثّل الله بي وإن كنت نبيا. دعه يا عمر فعسى أن يقوم مقاما تحمده»، وكعب بن لؤي، وكان يخطب على العرب عامة، ويحض كنانة على البرّ، وقس بن ساعدة، وغيرهم كثير[٥٧].

---

[٥٤] أبوهلال العسكري، الصناعتين، تحقيق: علي البجاوي، وآخر، (الناشر: المكتبة العنصرية، بيروت، عام النشر: ١٤١٩هـ)،/ ١٣٦؛ أحمد بن علي بن أحمد الفزاري القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، (الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت)، ١/ ٢٥٣، ٢٥٤.

[٥٥] القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ١/ ٢٥٣.

[٥٦] الجرجاني، كتاب التعريفات،/ ٩٩.

[٥٧] الجاحظ، البيان والتبيين، ١/ ٢٥٨، ٢٥٩، ٢٨٣، ٢٩٢؛ شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في النثر العربي، (الناشر: دار المعارف الطبعة: الثالثة عشرة)، ٣٠.

وكانت الخطابة لسان الأشراف والسادة والرؤساء والحكماء من القبائل يفضلونها علي الشعر الذي قلل من شأنه تكسب الشعراء به علي الرغم من مكانته الكبيرة في أنفسهم، الأمر الذي أدى إلى علوّ منزلة الخطابة بالنسبة للشعر، وقد ذكر أبو عمرو بن العلاء: أن الشاعر في الجاهلية كان يقدم على الخطيب، لفرط حاجتهم إلى الشعر الذي يقيّد عليهم مآثرهم ويفخم شأنهم، ويهول على عدوهم ومن غزاهم، ويهيب من فرسانهم ويخوف من كثرة عددهم، فلما كثر الشعر والشعراء، واتخذوا الشعر مكسبة ورحلوا إلى السوقة، وتسرعوا إلى أعراض الناس، صار الخطيب عندهم فوق الشاعر [٥٨].

فأصبح لكل قبيلة خطيب، وقد اشتهر أشراف القبائل وسادتها بالخطابة، وكثر استخدامها في الإصلاح بين الناس والدعوة إلى السلام، أو الحثّ على القتال والتحريض علي الحرب، وذلك كثير عند العرب في جاهليتهم لكثرة ما كان يقع بينهم من منازعات وخصومات، أو يلجأ إليها في المفاخرة، والاعتزاز بالعشيرة والقبيلة، أو حين الدعوة إلي مكارم الأخلاق والبعد عن الرذائل، أو في مجال التهنئة أو التعزية في عظيم أو رئيس من رؤسائهم، أو في شيخ من شيوخهم.

ثم إن الخطيب ينفرد بمواقف خاصة به تميزه عن غيره، كالوفادة على الأمراء والملوك متحدثا عن مفاخر قبيلته ومحامدها، وكالنصح والإرشاد، والتكلم باسم قبيلته في المواسم والمحافل العظام، وخطبهم في الإملاك والزواج مشهورة، ومن أهم المواقف التي كان ينفرد بها أنه كان يدعو إلى السلم، وأن تضع الحرب بين القبائل المتخاصمة أوزارها[٥٩]، وذلك لأنه الأجدر بأن يؤثر في نفوس السامعين وأن يستميلهم إلى ما يؤمن به.

ولا شك أن الخطابة كانت عندهم ملكة فطرية، يعبرون بها عن أفكارهم وآرائهم، ويصورون بها جميع ما يتعلق بشؤون حياتهم في أسلوب بليغ مؤثر في الجمهور، وقد كان من دواعي شهرة الخطابة عندهم وانتشارها بينهم، وكثرة مجالاتها أن أذواقهم

---

[٥٨] الجاحظ، البيان والتبيين، ١/ ٢٠٣.

[٥٩] شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في النثر العربي،/ ٢٧، ٢٨؛

(ISSN: 2536- 9555)

الأدبية ولَّدت فيهم ملكة الخطابة إذ كانوا هم أهل الفصاحة والبلاغة والبيان، ثم إن كثرة الحروب والخلافات بينهم وتفرقهم إلى قبائل وأحياء، ناهيك عن ضعف شأن الشعر ومكانته في نفوس الأشراف منهم بسبب تكسب الشعراء به، بالإضافة إلى كونهم في الغالب أمة أمية يندر فيهم القراءة والكتابة ألجأهم ذلك كله إلي الاستعانة باللسان دون الكتابة[٦٠]، وذلك في أوضح صورة وأشمل نموذج أعني الخطابة، فتوسعوا في استخدامها، وأبدعوا في فنونها.

ج- خطبة قس بين الرواية والتوثيق:

نص الخطبة

عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَدِمَ الْجَارُودُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ وَكَانَ سَيِّدًا فِي قَوْمِهِ عَلَى رَسُول اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَقَدْ وَجَدْتُ صِفَتَكَ فِي الإِنْجِيلِ، وَلَقَدْ بَشَّرَ بِكَ ابْنُ الْبَتُولِ، فَأَنَا أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّكَ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ، قَالَ: فَآمَنَ الْجَارُودُ وَآمَنَ مِنْ قَوْمِهِ كُلُّ سَيِّدٍ، فَسُرَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِهِمْ وَقَالَ: «يَا جَارُودُ هَلْ فِي جَمَاعَةِ وَفْدِ عَبْدِ الْقَيْسِ مَنْ يُعَرِّفُ لَنَا قِسًّا» قَالُوا: كُلُّنَا نَعْرِفُهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَأَنَا مِنْ بَيْنِ يَدَيِ الْقَوْمِ كُنْتُ أَقْفُو أَثَرَهُ، كَانَ مِنْ أَسْبَاطِ الْعَرَبِ فَصِيحًا، عمر سبعمائة سَنَةٍ، أَدْرَكَ مِنَ الْحَوَارِيِّينَ سَمْعَانَ، فَهُوَ أَوَّلُ مَنْ تَأَلَّهَ مِنَ الْعَرَبِ، كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ يُقْسِمُ بِالرَّبِّ الَّذِي هُوَ لَهُ لَيَبْلُغَنَّ الْكِتَابُ أَجَلَهُ، وَلَيُوَفَّيَنَّ كُلُّ عَامِلٍ عَمَلَهُ، ثُمَّ أَنْشَأَ يَقُولُ: فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «عَلَى رَسْلِكَ يَا جَارُودُ، فَلَسْتُ أَنْسَاهُ بِسُوقِ عُكَاظٍ عَلَى جَمَلٍ أَوْرَقَ وَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِكَلامٍ مَا أَظُنُّ أَنِّي أَحْفَظُهُ»، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: يَا رَسُولَ اللَّهِ فَإِنِّي أَحْفَظُهُ، كُنْتُ حَاضِرًا ذَلِكَ اليوم بسوق عكاظ، فقال في خطبته: يا أيها النَّاسُ: اسْمَعُوا وَعُوا، وَإِذَا وَعَيْتُمْ فَانْتَفِعُوا، إِنَّهُ مَنْ عَاشَ مَاتَ، وَمَنْ مَاتَ فَاتَ، وَكُلُّ مَا هُوَ آتٍ آتٍ، مَطَرٌ وَنَبَاتٌ، وَأَرْزَاقٌ وَأَقْوَاتٌ، وَآبَاءٌ وَأُمَّهَاتٌ، وَأَحْيَاءٌ وَأَمْوَاتٌ، جَمْعٌ وَأَشْتَاتٌ، وَآيَاتٌ بَعْدَ آيَاتٍ، إِنَّ فِي السَّمَاءِ لَخَبَرًا، وَإِنَّ فِي الأَرْضِ لَعِبَرًا، لَيْلٌ دَاجٍ، وَسَمَاءٌ ذَاتُ أَبْرَاجٍ، وَأَرْضٌ ذَاتُ رِتَاجٍ، وَبِحَارٌ ذَاتُ أَمْوَاجٍ مَالِي أَرَى النَّاسَ

[٦٠] محمد عبد المنعم خفاجى، الحياة الأدبية في العصر الجاهلي، (الناشر: دار الجيل بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٢هـ- ١٩٩٢م)، ص/ ١٥٩.

يَذْهَبُونَ فَلا يَرْجِعُونَ، أَرَضَوْا بِالْمُقَامِ فَأَقَامُوا، أَمْ تُرِكُوا هُنَاكَ فَنَامُوا، أَقْسَمَ قِسٌّ قَسَمًا لا حَانِثًا فِيهِ وَلا آثِمًا: إِنَّ لِلَّهِ دِينًا هُوَ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ دِينِكُمُ الَّذِي أَنْتُمْ عَلَيْهِ، وَنَبِيًّا قَدْ حَانَ حِينُهُ وَأَظَلَّكُمْ أَوَانُهُ، فَطُوبَى لِمَنْ آمَنَ بِهِ فَهَدَاهُ، وَوَيْلٌ لِمَنْ خَالَفَهُ وَعَصَاهُ، ثُمَّ قَالَ: تَبًّا لأَرْبَابِ الْغَفْلَةِ مِنَ الأُمَمِ الْخَالِيَةِ وَالْقُرُونِ الْمَاضِيَةِ، يَا مَعْشَرَ إِيَادٍ: أَيْنَ الآبَاءُ وَالأَجْدَادُ، وَأَيْنَ الْمَرِيضُ وَالْعُوَّادُ، وَأَيْنَ الْفَرَاعِنَةُ الشِّدَادُ، أَيْنَ مَنْ بَنَى وَشَيَّدَ، وَزَخْرَفَ وَنَجَّدَ، وَغَرَّهُ الْمَالُ وَالْوَلَدُ، أَيْنَ مَنْ بَغَى وَطَغَى، وَجَمَعَ فَأَوْعَى، وَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى، أَلَمْ يَكُونُوا أَكْثَرَ مِنْكُمْ أَمْوَالا، وَأَطْوَلَ مِنْكُمْ آجَالا، وَأَبْعَدَ مِنْكُمْ آمَالا، طَحَنَهُمُ الثَّرَى بِكَلْكَلِهِ وَمَزَّقَهُمْ بِتَطَاوُلِهِ، فَتِلْكَ عِظَامُهُمْ بَالِيَةٌ، وَبُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ، عَمَّرَتْهَا الذِّئَابُ الْعَاوِيَةُ، كَلا: بَلْ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْمَعْبُودُ، ليس بوالد ولا مولد، **ثُمَّ أَنْشَأَ يَقُولُ: (من مجزوء الكامل)**

فِـــــي الـــــذَّاهِبِينَ الأَوَّلِـــــينَ ** مِـــنَ الْقُـــرُونِ لَنَـــا بَصَـــائِرُ
لَمَّـــــا رَأَيْـــــتُ مَـــــوَارِدًا ** لِلْمَـــوْتِ لَـــيْسَ لَهَـــا مَصَـــادِرُ
وَرَأَيْـــــتُ قَـــــوْمِي نَحْوَهَـــــا ** تَمْضِـــي الأصـــاغر والأكـــابر
لا يرجـــــع الماضـــــي إلـــــي ** ولا مـــــن البـــــاقين غـــــابر
أيقنـــــت أنـــــى لا محـــــا ** لـــة حَيْـثُ صَـارَ الْقَـوْمُ صَـائِرُ[٦١]

وفي رواية أخرى عن ابن عباس قد يفهم منها أن الذي روى الخطبة هو النبي صلى الله عليه وسلم، ففيها: عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: لَمَّا قَدِمَ وَفْدُ إِيَادٍ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " أَيُّكُمْ

[٦١] البيهقي، دلائل النبوة، ٢/ ١٠٨، ١٠٩؛ محمد بن محمد بن محمد بن أحمد، ابن سيد الناس، اليعمري الربعي، أبو الفتح، فتح الدين، عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، تعليق: إبراهيم محمد رمضان، (الناشر: دار القلم– بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٤/١٩٩٣.)، ١/ ٨٥؛ الشُّريشي، شرح مقامات الحريري، ٣/ ١٩٥ وما بعدها؛ منصور بن الحسين الرازي، أبو سعد الآبى، نثر الدر في المحاضرات، تحقيق: خالد عبد الغني محفوظ، (الناشر: دار الكتب العلمية– بيروت/لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٤هـ– ٢٠٠٤)، ٧/ ٧٦، ٧٧؛ الصالحي، سبل الهدى والرشاد، ٢/ ١٨٦، ١٨٧؛ علي بن إبراهيم بن أحمد الحلبي، أبو الفرج، نور الدين ابن برهان الدين (، السيرة الحلبية، (إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون) (الناشر: دار الكتب العلمية– بيروت الطبعة: الثانية– ١٤٢٧هـ) ٢٨٤/١.

(ISSN: 2536- 9555)

يَعْرِفُ قُسَّ بْنَ سَاعِدَةَ الْإِيَادِيَّ؟، قَالُوا: كُلُّنَا نَعْرِفُهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ:، فَمَا فَعَلَ؟، قَالُوا: مَاتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: رَحِمَ اللَّهُ قُسَّ بْنَ سَاعِدَةَ مَا أَنْسَاهُ، وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ بِسُوقِ عُكَاظٍ فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ عَلَى جَمَلٍ لَهُ أَوْرَقَ أَحْمَرَ وَهُوَ يَخْطُبُ النَّاسَ، وَيَتَكَلَّمُ بِكَلَامٍ عَلَيْهِ حَلَاوَةٌ وَهُوَ يَقُولُ: أَيُّهَا النَّاسُ اجْتَمِعُوا وَاسْتَمِعُوا وَاحْفَظُوا وَعُوا، مَنْ عَاشَ مَاتَ، وَمَنْ مَاتَ فَاتَ، وَكُلُّ مَا هُوَ آتٍ آتٍ، لَيْلٌ دَاجٍ، وَسَمَاءٌ ذَاتُ أَبْرَاجٍ، بِحَارٌ تَزْخَرُ، وَنُجُومٌ تُزْهِرُ، وَمَطَرٌ وَنَبَاتٌ، وَآبَاءٌ وَأُمَّهَاتٌ، وَذَاهِبٌ وَآتٍ، وَضَوْءٌ وَظَلَامٌ، وَبِرٌّ وَآثَامٌ، لِبَاسٌ وَمَرْكَبٌ، وَمَطْعَمٌ وَمَشْرَبٌ، إِنَّ فِي السَّمَاءِ لَخَبَرًا، وَإِنَّ فِي الْأَرْضِ لَعِبَرًا، مِهَادٌ مَوْضُوعٌ، وَسَقْفٌ مَرْفُوعٌ، وَنُجُومٌ تَمُورُ، وَبِحَارٌ لَا تَغُورُ، أَقْسَمَ قُسٌّ قَسَمًا حَقًّا، لَئِنْ كَانَ فِي الْأَرْضِ رِضًا لَيَكُونُ سَخَطًا، إِنَّ لِلَّهِ دِينًا هُوَ أَحَبُّ الْأَدْيَانِ إِلَيْهِ مِنْ دِينِكُمُ الَّذِي أَنْتُمْ عَلَيْهِ، مَا لِي أَرَى النَّاسَ يَذْهَبُونَ وَلَا يَرْجِعُونَ، أَرَضُوا بِالْمُقَامِ هُنَاكَ فَأَقَامُوا، أَمْ تُرِكُوا هُنَاكَ فَنَامُوا؟....إلخ[٦٢].

وفي رواية عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ قَالَ «لَمَّا قَدِمَ وَفْدُ إِيَادٍ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: يَا مَعْشَرَ وَفْدِ إِيَادٍ مَا فَعَلَ قُسُّ بْنُ سَاعِدَةَ الْإِيَادِيُّ؟ قَالُوا: هَلَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: لَقَدْ شَهِدْتُهُ يَوْمًا بِسُوقِ عُكَاظٍ عَلَى جَمَلٍ أَحْمَرَ، يَتَكَلَّمُ بِكَلَامٍ مُعْجِبٍ مُونِقٍ لَا أَحْفَظُهُ فَقَامَ إِلَيْهِ أَعْرَابِيٌّ مِنْ أَقَاصِي الْقَوْمِ فَقَالَ: أَنَا أَحْفَظُهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: فَسُرَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِذَلِكَ قَالَ: فَكَانَ بِسُوقِ عُكَاظٍ عَلَى جَمَلٍ أَحْمَرَ....[٦٣] وذكر الخطبة مع اختلاف في النص بالزيادة والنقص، وراويها أعرابي بمعية وفد بني إياد، خلافا لرواية عبدالله بن عباس فالوفد وفد عبد القيس، والذي تصدى لرواية الخطبة أبوبكر رضي الله عنه.

وكما نلحظ فقد اختلف في الوفد الذي قابل النبي صلى الله عليه وسلم، وكان سببا في تذكر النبي عليه السلام قساً والسؤال عنه والمناسبة التي قيلت فيها هذه الخطبة، فبعض المصادر نصت على أن الوفد الذي لاقى النبي صلى الله عليه وسلم كان وفدا من قبيلة بني إياد والتي ينتمي إليهم قس، ففي رواية لابن عباس، وكذا أنس بن مالك، وعبادة بن الصامت، وعامر بن أبجر رضي الله عنهم أن وفد بني

---

[٦٢] الأصفهاني، دلائل النبوة، ١/ ١٠٣؛ البيهقي، دلائل النبوة، ٢/ ١٠١– ١٠٤؛ الجاحظ، البيان والتبيين، ١/ ٢٥٣، ٢٥٤؛ محمد بن محمد بن محمد بن أحمد، ابن سيد الناس، عيون الأثر، ١/ ٨٣؛

[٦٣] ابن كثير، البداية والنهاية، ٢/ ٢٨٩.

إياد وفد على النبي عليه السلام[٦٤]، وفي دلائل النبوة للبيهقي، أن وفد بني إياد قدم على النبي عليه السلام، فقال النبي: «مَا فَعَلَ قُسُّ بْنُ سَاعِدَةَ الْإِيَادِيُّ» ؟ قَالُوا: هَلَكَ. قال: «أَمَا إِنِّي سَمِعْتُ مِنْهُ كَلَامًا مَا أَرَى أَنِّي أَحْفَظُهُ». فَقَالَ بَعْضُ الْقَوْمِ: نَحْنُ نَحْفَظُهُ يَا رَسُولَ اللهِ، فَقَالَ: هَاتُوا....[٦٥]. و في بعضها أنه لما جاء وفد إياد إلى النبي صلى الله عليه وسلم سُرّ بحفظ بعضهم خطبة قس[٦٦].

وفي رواية أخرى لابن عباس أن وفد عبد القيس وفد على النبي وكان فيهم عظيمهم الجارود بن عبدالله فسألهم عن قس بن ساعدة الإيادي[٦٧]. وفي بعض المصادر لمّا قدم وفد بكر بن وائل على رسول الله صلى الله عليه وسلم، سألهم عن رجل كان فيهم نازلا، يقال له: قسّ بن ساعدة الإياديّ[٦٨].

وكما اختلفت الرواية في الانتماء القبلي لهذا الوفد اختلفت أيضا في الراوي الذي حكى الخطبة، ففي بعض الروايات كان رجلا من أقاصي القوم، أو بعض القوم قال أنا أحفظه يا رسول الله، وفي بعضها أن الذي قص الخطبة هو أبوبكر الصديق رضي الله عنه وقف بين القوم وقال أنا أحفظه يا رسول الله، وفي بعضها تعزو روايتها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولأنها احتوت على بعض الأشعار فقد

---

[٦٤] أبو القاسم خلف بن عبد الملك بن مسعود بن بشكوال الخزرجي الأنصاري الأندلسي، غوامض الأسماء المبهمة الواقعة في متون الأحاديث المسندة، تحقيق: عزالدين علي، وآخر، (الناشر: عالم الكتب– بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٧هـ)، ٢/ ٦٧٣؛ ابن حمزة الحسيني، إبراهيم بن محمد بن محمد كمال الدين، البيان والتعريف في أسباب ورود الحديث الشريف، تحقيق: سيف الدين الكاتب، (الناشر: دار الكتاب العربي– بيروت)، ٢/ ٥٦، ٥٧؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ٢/ ٢٨٩، ٢٩٥.

[٦٥] أحمد بن الحسين بن علي بن موسى، دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، الناشر: دار الكتب العلمية– بيروت، الطبعة: الأولى– ١٤٠٥ هـ)، ٢/ ١٠١.

[٦٦] ابن كثير، البداية والنهاية، ٢/ ٢٨٩.

[٦٧] أبو القاسم الطبراني، سليمان بن أحمد بن أيوب اللخمي، المعجم الكبير، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، (دار النشر: مكتبة ابن تيمية– القاهرة، الطبعة: الثانية)، ١٢/ ٨٨؛ ابن سيد الناس، عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، ١/ ٨٥؛ الشُّريشي، شرح مقامات الحريري، ٣/ ١٩٥ وما بعدها؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ١/ ١٤٢.

[٦٨] ابن سعد، الطبقات الكبرى، ١/ ٢٣٩؛ البزار، مسند البزار(البحر الزخار)، ١١/ ٤٧٠؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ٢/ ٢٩٠؛ الشريشي، شرح مقانات الحريري، ٣/ ١٩٥؛ ابن الأثير، منال الطالب في شرح طوال الغرائب،/ ١٣٤.

(ISSN: 2536- 9555)

عزت المنثور منها إليه صلى الله عليه وسلم، وعزت رواية الشعر إلى أبي بكر، وقيل: إن وفد بني بكر بن وائل هم من سألوا النبي صلى الله عليه وسلم عن قس بن ساعدة، وليس النبي عليه السلام هو السائل، قال رجل منهم للنبي عليه السلام: هل تعرف قس بن ساعدة؟ فقال رسول الله. صلى الله عليه وسلم: "لَيْسَ هُوَ منكم هذا رَجُل مِن إياد تحَنَّفَ فِي الجاهلية فَوافَى عكاظ والناس مُجْتَمِعُونَ فكلَّمهم بِكَلَامِهِ الَّذِي حُفِظَ عَنْهُ"(٦٩).

وفي تعدد الرواية على هذا النحو ما قد يدل على تكرر وقوع الحادثة، فمرة أخبر النبي صلى الله عليه وسلم كلام قس من حفظه، وكان قس على جمل أحمر. ومرة أخرى لم يحفظ صلى الله عليه وسلم فيها كلامه، كان قس على جمل أورق، وقد يقال: النسيان جائز عليه صلى الله عليه وسلم، فيجوز أن يكون صلى الله عليه وسلم نسي كلام قس بعد الإخبار به أولا، ويدل لذلك قوله: «لا أظن أني أحفظه الآن» أو قبل الإخبار به، فيكون خبره صلى الله عليه وسلم متأخرا عن خبر أبي بكر، فلا دلالة في ذلك على التعدد، ووصف الجمل بأنه أحمر، ووصفه بأنه أورق لا يدل على التعدد، لأنه يجوز أن يكون شديد الحمرة وشدة الحمرة تميل إلى السواد وهو الأورق، فأخبر عنه مرة بأنه أحمر، ومرة بأنه أورق. وهذا السياق يدل على تعدد مجيء وفد عبد القيس، مرة جاؤوا وحدهم، ومرة جاؤوا مع سيدهم الجارود(٧٠).

وفي ألفاظ الخطبة خلاف بين بعض الروايات بالزيادة والنقص من الصعب تتبعه؛ لذلك ترك ابن الأثير بعض ألفاظها اختصارا(٧١)، وقد وردت في المصادر العربية المختلفة حتى بلغت مبلغ التواتر مما يدل على ثبوتها ولا وجه للطعن عليها من جهة أنها لم تثبت أو لم تصح، وقد ذكر ابن الأثير أن حديث قس بن ساعدة على كثرة رواياته واختلاف طرقه حديث مشهور، متداول بين رواة الحديث وأئمته، وقد ذكر بعض الحفاظ أنه موضوع"(٧٢)، لا أصل له، كابن الجوزي، وغيره(٧٣).

(٦٩) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ١/ ٢٣٩؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ٥/ ١٠٨.
(٧٠) ابن برهان الدين الحلبي، أبو الفرج، السيرة الحلبية، ١/ ٢٨٥.
(٧١) ابن الأثير، منال الطالب في شرح طوال الغرائب،/ ١٣٧.
(٧٢) ابن الأثير، منال الطالب في شرح طوال الغرائب،/ ١٣٦.

وفي نعته بأنه موضوع تشدد، فحديث قس بن ساعد أكثر ما يقال فيه أنه ضعيف لا كونه موضوعا، فقد روي من طرق متعددة، وفي بعضها مروي عن ابن عباس بأسجاعه وشعره، وعن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: قَدِمَ وَفْدُ إِيَادٍ عَلَى النَّبِيِّ، صَلَّى اللهُ عليه وآله وَسَلَّمَ، فَقَالَ النَّبِيُّ، صَلَّى اللهُ عليه وآله وَسَلَّمَ: مَا فَعَلَ قُسُّ بْنُ سَاعِدَةَ الْإِيَادِيُّ؟ قَالُوا: هَلَكَ. قَالَ: "أَمَا إِنِّي سَمِعْتُ مِنْهُ كَلَامًا مَا أَرَى أَنِّي أَحْفَظُهُ..."[٧٤]، كما روي من وجه آخر عن الحسن البصري منقطعا، وروي مختصرا من حديث سعد بن أبي وقاص، وأبي هريرة، وإذا روي حديث من أوجه وإن كان بعضها ضعيفا دل على أن للحديث أصلا[٧٥].

وفي الردّ على قول من قال بالوضع فيه نصَّ ابن كثير على أن طرق هذا الخبر على ضعفها فهي كالمتعاضدة على إثبات أصل القصة. وقال الحافظ ابن حجر: طرق هذا الحديث كلها ضعيفة، وهو يردّ قول ابن الجوزي في موضوعاته من أن حديث قس بن ساعدة من جميع جهاته باطل[٧٦]. واللافت للنظر ههنا أن جميع الروايات بمصادرها المختلفة، الدينية واللغوية والأدبية والتاريخية وإن اختلفت في الراوي إلا أنها جميعا تتفق في أن صاحب هذا النص هو قس بن ساعدة الإيادي وربطه بزمانه ومكانه الذي قيل فيه (سوق عكاظ، في الشهر الحرام)، فلم نجد مصدرا واحدا على الرغم من كثرتها وتنوعها يعزو هذا النص أو بعضا منه إلى خطيب آخر غير قس[٧٧].

ويكفي في وثاقة هذا النص رواية النبي صلى الله عليه وسلم له وحفظه بعضا منه، حتى وإن اختلفوا في عزوه أو تضعيفه، وقد ذكر الجاحظ أن لإياد وتميم في الخطب خصلة ليست لأحد من العرب؛ لأن رسول الله صلّى الله عليه وآله هو الذي روى كلام قس بن ساعدة وموقفه على جمله بعكاظ وموعظته، وهو الذي رواه لقريش

---

[٧٣] ابن الجوزي، جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد، الموضوعات، تحقيق: عبد الرحمن محمد عثمان، (الناشر: المكتبة السلفية بالمدينة المنورة، الطبعة: الأولى، جـ ١، ٢: ١٣٨٦هـ- ١٩٦٦م، جـ ٣: ١٣٨٨هـ- ١٩٦٨م)، ١/ ٢١٣.

[٧٤] البيهقي، دلائل النبوة، ١٠١، ١٠٢؛

[٧٥] البيهقي، دلائل النبوة، ٢/ ١١٣.

[٧٦] ابن كثير، السيرة النبوية، ١/ ١٥٢؛ ابن برهان الدين، السيرة الحلبية، ١/ ٢٨٥.

[٧٧] محمد سعيد، قس بن ساعدة،/ ٩١.

(ISSN: 2536- 9555)

والعرب، وهو الذي عجب من حسنه وأظهر من تصويبه. وهذا إسناد تعجز عنه الأماني وتنقطع دونه الآمال. وإنما وفق الله ذلك الكلام لقس بن ساعدة لاحتجاجه للتوحيد، ولإظهاره معنى الإخلاص وإيمانه بالبعث؛ ولذلك كان خطيب العرب قاطبة[٧٨].

المكان والزمان:

عُكاظ:

عُكاظ بضم العين: اسم موضع[٧٩]، سوق للعرب بناحية مكة، في واد به نخل، بينه وبين الطائف ليلة وبينه وبين مكة ثلاث ليال، كانت قبائل العرب تجتمع فيها شهرا من كل سنة يتبايعون، ويتفاخرون، ويحضرها شعراؤهم فيتناشدون ما أحدثوه من أشعار[٨٠]، وتضرب القباب فيه لكبار الأدباء، الذين يعرض عليهم نتاج الشعراء فيتناولونه بالنقد والتقييم، ويتبارى فيه كذلك الخطباء في فنون القول، فيعرضون ما يؤمنون به من أفكار ومعتقدات، بقصد إقناع جمهور السامعين واستمالتهم إليهم، وكان من هؤلاء الذين وقفوا فيه فنصحوا ووعظوا خطيبنا قس بن ساعدة الإيادي. قال أبو حيان: "...ثم يرتحلون إلى عكاظ وذي المجاز في الأشهر الحرم، فتقوم أسواقهم بها، فيتناشدون ويتحاجّون ويتحادّون، ومن له أسير يسعى في فدائه، ومن له حكومة ارتفع إلى الذي يقوم بأمر الحكومة من بني تميم، وكان آخرهم الأقرع بن حابس، ثم يقفون بعرفة، ويقضون ما عليهم من مناسكهم، ثم يتوجهون إلى أوطانهم"[٨١].

---

[٧٨] الجاحظ، البيان والتبيين، ١/ ٦٥؛ أبو إسحق برهان الدين محمد بن إبراهيم بن يحيى بن علي المعروف بالوطواط،غرر، الخصائص الواضحة، وعرر النقائض الفاضحة، تحقيق: ابراهيم شمس الدين، (الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٩هـ– ٢٠٠٨م)، ١٩٦؛ البغدادي، خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب،٢/ ٩١.

[٧٩] ابن درستويه، خبر قس بن ساعدة الإيادي، تحقيق: محمد بدوي المختون، (الناشر: مجلة كلية اللغة العربية، جامعة الإمام محمد بن سعود الأسلامية، السعودية، العدد ١٤/ ١٣، ص: ١٦٩.

[٨٠] ياقوت الحموي، معجم البلدان، ٤/ ١٤٢؛ ابن درستويه، خبرقس بن ساعدة الإيادي،/ ١٦٩، ١٧٠؛ ابن الأثير، منال الطالب في شرح طوال الغرائب،/ ١٣٨؛ ابن عبد ربه، العقد الفريد، ٦/ ١٠٣؛ سعيد بن محمد بن أحمد الأفغاني، أسواق العرب في الجاهلية والإسلام، (بدون)،/ ٢٨٠، ٢٨١.

[٨١] أبو حيان التوحيدي، علي بن محمد بن العباس، الإمتاع والمؤانسة، (الناشر: المكتبة العنصرية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٤هـ)،/ ٧٧.

فسوق عكاظ معرض لكثير من عادات العرب وأحوالهم الاجتماعية في الجاهلية، ومنتدى سياسي تقضى فيها أمور كثيرة بين القبائل؛ فمن كانت له إتاوة على قبيلة نزل عكاظ فجاؤوه بها، ومن أراد إجارة أحد هتف بذلك في عكاظ حتى يسمع عامة الناس، ومن أراد إعلان حرب على قوم أعلنه في عكاظ، ومن أتى عملا شائنا تأباه مروءة العربي شهروا أمره بعكاظ، ونصبوا له راية غدر فعرفوه فلعنوه واجتنبوه، ومن أراد أن يستلحق امرأ بنسبه استلحقه وأعلن ذلك للناس في عكاظ، ومن أراد التبرؤ من قريب لسبب ما، تبرأ منه علنا، فإذا أتى بعد ذلك جريمة أو خيانة كان المتبرئ- في عرف العرب يومئذ- في حل مما أتى قريبه، فكانت هذه السوق تقوم من العرب يومئذ مقام الجريدة الرسمية في أيامنا هذه، وهي تشبه إلى حد كبير ما يعرف في زمننا بالمعارض الكبرى، بل إن عكاظ لأوسع مدى فيما يعرض؛ فإنه لا يقتصر على مواد التجارة والصناعة بل يتعداهما إلى الأدب والشعر والحرب والسلم والعادات والتقاليد والتحكيم في النزاعات والخصومات بين القبائل، فالكثير من حكام العرب كانوا يرتادونها وغيرها، ويحكمون بين القبائل[٨٢].

وليضمن خطيبنا قس تبليغ أفكاره التي يؤمن بها وينادي الناس إليها إلى أكبر قدر ممكن من الناس اختار لإلقاء خطبته سوق عكاظ، والسوق معروف منتدى يحتشد فيه الناس من كل صوب وحدب، تجتمع فيه قبائل العرب للتبادل التجاري فيما بينهم، وليتباروا أدبيا وثقافيا، واختيار المكان المناسب له تأثيره الكبير على المستهدفين بالخطاب، ليحقق غرضه من الخطبة والمتمثل في استمالة الجمهور وإقناعهم بما يؤمن به الخطيب من خلال التأثير في قلوبهم وعقولهم.

الزمان العصر الجاهلي في (الشهر الحرام):

وأما بالنسبة لزمان خطبة قس فهو زمان العصر الجاهلي، والجاهلية اسم للزمان الذي كان قبل الإسلام وأهله، أطلق على الحال التي كانت عليها العرب قبل بزوغ فجر الإسلام، وهي مشتقة من الجهل، ضد العلم؛ لأنه كان الغالب على أهلها[٨٣]،

---

[٨٢] الأفغاني، أسواق العرب في الجاهلية والإسلام،/ ٢٨٠، وما بعدها؛ محمد سعيد، قس بن ساعدة،/٩٩.

[٨٣] ابن الأثير، منال الطالب في شرح طوال الغرائب،/ ١٤٠؛ عبد الله عبد الجبار- محمد عبد المنعم خفاجى، قصة الأدب في الحجاز، (الناشر: مكتبة الكليات الأزهرية، بدون)،/ ١١٤؛ علي الجندي، في تاريخ الأدب الجاهلي، (الناشر: مكتبة دار التراث الطبعة: طبعة دار التراث الأول، ١٤١٢هـ-١٩٩١م)،/ ٧، ٨.

(ISSN: 2536- 9555)

أو هي مأخوذة من الجهل الذي هو السفه والغضب والأنفة، كما يميل كثير من المؤرخين، ولكنها في الواقع تعني تلك الحقبة التي كانت فيها الجزيرة العربية خالية من أي قانون، أو نبي موحى إليه، أو كتاب منزل، وتشمل هذه الفترة كل ما يجافي الروح الإسلامية من عقائد وأخلاق وعادات، كالربا وعبادة الأوثان، ونصرة الأخ ظالما ومظلوما، ووأد البنات، وغيرها(٨٤).

ومن ثم فإن اسم الجاهلية إذا ما أطلق استرعى انتباهك من أول وهلة تلك الحالة الاجتماعية والدينية التي كان عليها الناس إبان تلك الفترة، وما كانوا عليه من طيش ونزق، ومن عادات وتقاليد، بعضها فاسدة توارثوها عن الآباء والأجداد، وما شابه معتقداتهم وديانتهم من أوهام وأباطيل، وهم في هذه الفترة المظلمة في مسيس الحاجة إلى من يرشدهم إلى طريق التوحيد، ويصحح لهم معتقداتهم، بتوجيه نظرهم إلى التأمل والتفكير في الكون وآياته وما فيه من صنعة وإبداع تدل على وجود إله واحد له.

قال علي الجندي: "ولكنهم على العموم كانوا، قبل بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم في ضلال ديني، وظلام دامس في العقيدة، وما كانوا يعرفون الدين الصحيح، فلما جاء الإسلام كشف لهم الحقيقة وهداهم إلى الصراط المستقيم، وأخرجهم من الظلمات إلى النور، فأزاح عنهم جهل العقيدة، وأسبغ عليهم نور العلم بحقيقة الله، والعلم بالعقيدة الصحيحة والدين القويم"(٨٥).

وترتبط بهذه الفترة الزمنية فترة زمنية أخرى، هي أخص من الأولى، فالزمان كما قلنا زمان الجاهلية في الشهر الحرام، من أحد الأشهر الحرم، (المحرم، ورجب وذو القعدة وذو الحجة)، وكان من جملة ما تعتقده العرب من الدّين تعظيم هذه الأشهر الحرم الأربعة، فكانوا لا يستحلون فيها القتال، بل يحرمونه على أنفسهم(٨٦)، ففيها

(٨٤) عبد الجبار– خفاجي، قصة الأدب في الحجاز،/ ١١٤؛ الجندي، في تاريخ الأدب الجاهلي،/ ١٠.
(٨٥) الجندي، في تاريخ الأدب الجاهلي،/ ١٠.
(٨٦) ابن درستويه، خبر قس بن ساعدة،/ ١٧١؛ النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، ١٦٦/١.

يضعون أسلحتهم، ويحرمون النهب والسلب، والإغارة والقتل، بحيث يلقى فيها أحدهم قاتل أبيه أو ابنه فلا يهيجه، ولا يعرض له بسوء[٨٧].

ومن ثم ففي هذه الأشهر الحرام تسكن التارات، وتحقن الدماء والعداوات بين الناس، وتتاح فيها حرية التنقل بين القبائل والتسوق في أسواقها في أمان وسلام؛ مما يتيح لهم حرية المناقشة والحوار والسماع، والدعوة والمناظرة، ولقد سمع النبي صلى الله عليه وسلم قسا في سوق عكاظ في الشهر الحرام على جمل أورق خطيبا يعظ الناس ويدعوهم إلى الحنيفية ملة إبراهيم عليه السلام. وكانت سوق عكاظ تقوم في أول يوم من ذي القعدة، الذي اكتسب اسمه من تحريمهم القتال فيه؛ إذ كانوا يقعدون فيه عن الغزو والغارة، وفيه يأمن بعضهم بعضا، وكانت العرب تجتمع فيها للتجارة والتّهيّؤ للحج، من أول ذي القعدة، فيتسوقون فيه إلى وقت حضور الحج، ثم يحجون[٨٨].

وخطيبنا قس حكيم ذكي واع وجد في اجتماع الناس في سوق عكاظ وفي الشهر الحرام فرصة لا ينبغي أن يفوتها فقام فيهم خطيبا يعظهم وينصحهم، فهذه الأشهر الحرم لها قداستها عند العرب، وروحانياتها وجلالها في نفوسهم، فتزامنت دعوته الناس أنها كانت في هذه الأيام، فقابليتهم لدعوته أكثر، وتقديرهم لما يدعوهم إليه من الإيمان بالله الذي يحرم العدوان وقتل الأنفس بلا حق أكبر وأعظم، وبذا تلامس دعوته هذا الجانب الروحي الإيماني المرتبط بهذه الفترة الزمنية المقدسة، تلك الفترة التي يعقبها عندهم شعيرة الحج إلى بيت الله الحرام.

---

[٨٧] ابن الأثير، منال الطالب في شرح طوال الغرائب،/ ١٣٨؛أبو على أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقي الأصفهاني، الأزمنة والأمكنة، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٧)، ٣٨٥، ٣٨٦.

[٨٨] ابن عبد ربه، العقد الفريد، ٢/ ١٠٣؛ محمد بن أيدمر المستعصمي، الدر الفريد وبيت القصي، تحقيق: الدكتور كامل سلمان الجبوري، (الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٣٦هـ– ٢٠١٥م)، ٧/ ٤٧.

(ISSN: 2536- 9555)

مبحث في
المعنى في خطبة قس
بين تنوع الأساليب والجرس الصوتي الموسيقي
المطلب الأول
أبرز السمات الأسلوبية في خطبة قس

أسلوب النثر الجاهلي بصفة عامة يغلب عليه الميل إلى الجمل القصيرة البسيطة، والألفاظ الواضحة، لا سيما في الحكم والأمثال والخطابة، حتى إنه أحيانا الجملة فيه قد تجيء مكونة من لفظتين فقط مثل: "حر انتصر" و"سميعًا دعوت"[٨٩] كما كان يتخلل نثرهم، وبخاصة الخطابة، أبيات شعرية، فتضفي على نثرهم روعة وجمالا، كما أن الناظر في كلامهم يلحظ أن أسلوب النثر عندهم يمتاز بالوضوح والصراحة، بحيث لا يحتاج إلى إغراق في الفكر أو التعمق في الخيال، وليس فيه غموض أو إغراب وتكلف إلا فيما كان يفعله الكهان في أسجاعهم[٩٠]. وخطبة قس من هذا النوع النثري الرفيع الذي نستطيع من خلاله أن نقف على السمات البارزة في النثر الأدبي الجاهلي بصفة عامة والخطابة بصفة خاصة، **فأبرز السمات الأسلوبية في خطبة قس بن ساعدة تتلخص فيما يلي:**

- تحتوي الخطبة على الدعوة إلى التفكر والتأمل فيما في الكون من دلائل وعجائب تدل علي وجود الخالق، وقد ساق الخطيب من الأدلة المادية ما يدل علي ذلك بغرض إقناع السامعين واستمالتهم إليه، فالخطيب كان علي الحنيفية الباقية في بعض العرب من دين إبراهيم عليه السلام، يؤمن بالبعث بعد الموت والحساب والجزاء، فلم يقبل ما كان أهل الجاهلية عليه من فساد أخلاقي ووثنية، ولقد جاءت الخطبة معبرة عن إيمانه وعقيدته مبشرة بالدين الإسلامي الحنيف، ومنفرة ورافضة لما كان عليه العرب في جاهليتهم من شرك وعبادة للأصنام.
- الخطابة فن نثري يعتمد على مشافهة الجمهور من السامعين، وهي من هذا الوجه أولى باستعمال الألفاظ السهلة التناول للجمهور، مع بساطة المعاني وقلة

---

[٨٩] أبو هلال العسكري، جمهرة الأمثال، ١/ ٣٦٨؛ الميداني، مجمع الأمثال، ٢/ ٧٢.

[٩٠] الجندي، في تاريخ الأدب الجاهلي،/ ٢٧٣.

تركيبها[٩١]، ومما يصب في هذا الاتجاه خطبة قس تتميز بالجمل القصيرة المحكمة الموجزة، وهي مع وجازنها قد بلغت الغاية في الفصاحة والبلاغة والبيان، يغلب عليها الحكمة والسجع، والتقسيم والترتيب، وتتسم بالسهولة والوضوح؛ حيث لا يوجد فيها لفظة نابية جافية أو غريبة معناها غير واضح، حتي لكأنها صيغت في عصرنا هذا لا في العصر الجاهلي، بالإضافة إلي أن فيها من الأساليب البلاغية والصور البديعية الكثير؛ مما ساعد الخطيب علي أن يجذب السامعين ويستميلهم إلي ما يدعوهم إليه، وهي من السمات العامة التي تمتاز بها الخطابة في العصر الجاهلي، كما تمتاز بوضوح المعاني وصدقها لأنها تمثل حياتهم البسيطة الواضحة، التي لا تعقيد فيها ولا التواء، فهم لا يبالغون ولا يهولون، وإنما يعبرون عما يشعرون في بساطة ودون تكلف[٩٢].

- جمع الخطيب في خطبته بين النثر والشعر، ومازالت هذه هي عادة الخطباء منذ العصر الجاهلى إلى يومنا هذا، يستشهدون في خطبهم ببعض الأشعار المؤثرة؛ لإدراكهم مدى تأثر وتفاعل الجمهور من السامعين بما يلقى على أسماعهم من أشعار، تتصل بموضوع الخطبة وتنبه السامعين وتجذبهم جذبا إلى الإنصات الى الخطيب والإصغاء إليه بفضل ما يحمله الشعر من موسيقى تجعل الأذن ترتاح إلى سماعه وتطرب عند إنشادة، فضلا عما يحمله من معان وأفكار سامية وقيم نبيلة.

وخطيبا هنا شاعر كبير مشهود له بالفصاحة والبيان جمع في خطبته شيئا من شعره في الموضوع ذاته، فكانت أبياته بمثابة حسن الختام للخطبة وتلخيص لأفكارها، وغرضه من إيراد ذلك هو أن يحدث بشعره في جمهورالسامعين هزة نفسية عاطفية عنيفة وتأثيرا فكريا وأخلاقيا كبيرين ليتضافر من خلالها الشعر مع نص الخطبة النثري في إقناع السامعين واستمالتهم إلى ما يؤمن به قسّ، ويدعوهم إليه.

---

[٩١] محمد الطاهر بن عاشور، أصول الإنشاء والخطابة، تحقيق: ياسر بن حامد المطيري، (الناشر: مكتبة دار المنهاج للنشر والتوزيع، الرياض– المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٣هـ)،/ ١٢٥.

[٩٢] عبد الله عبد الجبار– محمد عبد المنعم خفاجى، قصة الأدب في الحجاز،/ ٣٠٠– ٣٠٣.

(ISSN: 2536- 9555)

وقد رتب قس بن ساعدة شعره ترتيبا منطقيا مثل عناصر الخطبة، وقرر فيها جملة من الحقائق ينتهي فيها إلى ما دعا إليه قومه من توحيد الله ونبذ ما هم عليه من مساوئ، فالموت حقيقة واقعة بنا لا محالة وأننا سنتجرع كأسه ونصير إلى ما صار إليه الأولون، إذ لما رأى الخطيب الناس من القرون الأولى البعيدة الغابرة، ومن أحبابه وأهله وقومه كلهم يذهبون ولا يرجعون، يردون الموت ولا يصدرون، صغيرهم وكبيرهم شريفهم وخسيسهم، أيقن حينئذ وتأكد له أنه لا محالة صائر إلى مصيرهم نفسه.

ومن جماليات هذا النص أننا إذا جردناه من زمان حدوثه، والمخاطبين به من قومه بني إياد، وصرفناه في النداء (بأيها الناس) إلى الناس عامة لصلح النص في كل زمان لمن كانت هذه صفتهم على النحو الذي بينه قس في خطبته، من حيث دعوتهم إلى التفكر والتأمل في مظاهر الكون التي ذكرها قس ليصلوا إلى حقيقة هذا الكون من أن له خالقا موصوفا بالوحدانية مختصا بالعبادة وحده.

أسلوب الخطيب:

يهدف الخطيب في خطبته إلى استمالة الجمهور من المستمعين، وذلك عن طريق إثارة وجدانهم وتحريك مشاعرهم وجذب انتباههم إليه، من خلال تنويع الأسلوب، وحسن الإلقاء، وجمال الإشارة، والتدرج في مخاطبتهم ومراعاة أحوالهم، ومقامه أو منزلته بين الناس، هذا في الجانب الوجداني أما الجانب الإقناعي فهو الغرض الأسمى الذي ينشده الخطيب، فإذا وصل إليه فقد حقق غرضه من دعوتهم إلى الإيمان والتسليم بما يدعو إليه، ولا يتأتي ذلك له إلا اعتمد في الإقناع على الحجج والبراهين المادية المناسبة، وضرب الأمثلة والقصص لأخذ العظة والعبرة منها، واختيار الجمل القصيرة والمعاني القريبة الواضحة، والألفاظ المألوفة التي يخاطب بها عقولهم.

وقد توفرت في قس الصفات اللازمة لتحقيق التأثير والاستمالة والإقناع، فقد كان سيدا في قومه من بني إياد، فهو خطيبهم والمتحدث بلسانهم على عادة الأشراف والسادة أن يكونوا خطباء لأقوامهم، واشتهر بينهم بحسن الخلق والتدين والقدوة الحسنة والعمل بما يقول، فقد كان حكيما في قومه متحنفا عن عبادة الأوثان، فصيح اللسان

قوي الحجة جهير الصوت خطبهم في سوق عكاظ على جمل أورق، حتى يصل صوته إلى أبعد مدى، وذلك كله ضروري للتأثير والاستمالة والإقناع[٩٣].

الأسلوب الخطابي:

الأسلوب الخطابي، يقوم على طبيعة هذا الفن الذي يهدف إلى الإقناع العقلي والاستمالة والتأثير في النفس، فتجتمع فيه الأدلة والبراهين العقلية تحقيقا للغاية الأولى، والانفعالات الوجدانية تحقيقا للغاية الثانية. وميزة الأسلوب الخطابي تنبع من هذه الطبيعة بغايتيها مما يجعله منوّعًا، يجمع بين تقرير الحقائق وإثارة العواطف، فيستخدم الفكر والوجدان وينفذ منهما إلى الإرادة يدفع بها إلى عمل من الأعمال[٩٤]. ناهيك عن أن الانتقال من غرض إلى غرض ومن أسلوب إلى أسلوب هو زينةُ الكلام ليس للخطيب فحسب بل للكاتب والشاعر على السواء، وهو أحسن تَطْرِيَة لنشاط السامع، وأكثر إيقاظًا للإصغاء إلي ما يلقى إليه من الخطيب[٩٥].

وانطلاقا من هذا الأساس الذي تقوم عليه طبيعة هذا الفن الخطابي يمكننا أن نستنبط أسلوبه ونميزه فيما يلي:

١- الأسلوب الخطابي يمتاز بصفة عامة تتمثل في قوة التأثير وحرارة العاطفة[٩٦]، وقوته مستمدة من قوة انفعال الخطيب وتأثره، ومدى قوة إيمانه بما يدعو إليه الناس وتمسكه به، فتظهر هذه القوة وذلك الإيمان في عباراته المسجوعة أو المزدوجة وكلماتة الجزلة الفصيحة الرنانة الدالة على ذلك، والناقلة إلي الجمهور انفعاله وعاطفته فتحدث فيهم التأثير ذاته عند الخطيب[٩٧]. يقول قس: "**تبًّا لأربابِ الغَفْلَةِ والأُمَمِ الخَاليةِ والقُرونِ الماضيةِ، يا معشرَ إيادٍ أينَ الآباءُ والأجدادُ وأينَ المَريضُ والعُوَّاد وأين الفَراعنةُ الشِّدادُ" وكقوله: "أقسم قس قسما لا حانثا فيه ولا آثما إن لله دِينا هو أحبُّ إليه من دِينكم الذي أنتم عليه، ونبيّا حانَ حينُه، وأظلَّكُم أَوانُه، وأَدْرَككُم إبانُه**".

---

[٩٣] عبد الله عبد الجبار- محمد عبد المنعم خفاجى، قصة الأدب في الحجاز،/ ٢٩٩، ٣٠١.

[٩٤] أحمد الشايب، الأسلوب، (الناشر: مكتبة النهضة المصرية، الطبعة: الثانية عشرة)،١١٧.

[٩٥] ابن عاشور، أصول الإنشاء والخطابة،/ ١٠٤.

[٩٦] عبدالجبار- خفاجي، قصة الأدب في الحجاز،/ ٣٠٤

[٩٧] الشايب، الأسلوب،/ ١١٨.

(ISSN: 2536- 9555)

٢- لا يضير الخطيب ولا يضير أسلوبه أن يقع فيه التكرار، فالتكرار لازم الأسلوب الخطابي، لا سيما التكرار المعنوي منه، وذلك بأن يردف الخطيب المعنى بتركيب آخر يؤدي المعنى نفسه، ولكن بتعبير مغاير وألفاظ مختلفة تأكيدا لكلامه وتقويته، ولأجل تثبيت الأفكار في أذهان السامعين[٩٨] ومنحهم الفرصة كاملة للفهم والوعي والإدراك ومتابعة الخطيب؛ إذ لا فرصة أخرى أمامهم ستسنح لهم سوى هذه التي تعتمد على السماع والمشافهة. من ذلك قول قس: "**أينَ مَنْ بنَي وشَيَّد وزَخْرَفَ ونَجَّدَ، وأينَ المالُ والوَلدُ، أينَ مَنْ بَغَى وطَغَى وجَمَع فَأَوْعَى**"، وقوله: "**أقسم قس قسما لا حانثا فيه ولا آثما**" وقوله: "**ونبيّا حانَ حينُه، وأظلَّكُم أَوانُه، وأَدْرَككُم إبانُه**".

٣- الأسلوب تارة يكون خبرًا مؤكدا، وتارة غير مؤكد، وتارة يكون إنشاء طلبيا، أمرًا، أو نهيًا، أو استفهامًا، وتارة يكون تفجعًا وتعجبا، وموجزا أو مسهبا، وتارة يكون ترغيبا أو ترهيبا، حتى لا يكون الخطاب على وتيرة واحدة فيمل منه السامعون. وليمثل على هذا النحو من التنوع والتغاير وعاء مناسبا للانفعالات والأفكار اللازمة للخطابة، والتي تمتلئ بها نفس الخطيب[٩٩]. من ذلك قول قس: **يا مَعشرَ الناسِ ؛ اجتَمِعوا وَاسمَعوا وَعُوا مَنْ عاشَ ماتَ، ومَنْ ماتَ فاتَ، وكلُّ ما هو آت آتٍ، آياتٌ مُحْكَماتٌ، مَطَرٌ ونباتٌ، وَآباءٌ وأُمَّهاتٌ، وذاهبٌ وآتٍ.... إنّ في السماءِ لخبرا، وإنّ في الأرض لعِبَرا، ما لي أرى الناسَ يذهبون، يموتون فلا يرجِعون، أَرَضُوا بالإقامةِ فأقاموا، أم تُرِكوا فناموا**".

٤- الأسلوب الخطابي أسلوب وعظي، ولكن لا ينبغي أن يكون وعظيا مجردا؛ لأنه حينئذ سيكون مملا بل يجب على الخطيب أن يسوق الأمثلة والنماذج المادية من الحياة بما تحتويها من حقائق، فهذه النماذج المادية أسهل على التذكر وأيسر في الحديث عنها[١٠٠]، وأقوى في التأثير والإقناع؛ لذا فهو يعتمد على التقرير الذي لا يترك للمخاطب مجالا للإنكار بل يحمله على الاعتراف والتسليم والإقرار بما

---

[٩٨] الشايب، الأسلوب،/ ١١٨.

[٩٩] الشايب، الأسلوب، ١١٨؛ ابن عاشور، أصول الإنشاء والخطابة،/ ١٠٢.

[١٠٠] ديل كارنيجي، فن الخطابة، (الوسام للخدمات الطباعية، عمان، الأردن، الطبعة العربية الأولى، ٢٠٠١م)،/ ٣٥.

يدعو إليه الخطيب، وفيه القصص والوصف للتأثير والاستمالة وحث المخاطبين على الاتعاظ وأخذ العبرة منها، ومن ذلك عند قس: "**أينَ مَنْ بَغَى وطَغَى وجَمَع فَأَوْعَى وقال أنا ربُّكمُ الأعلَى، أَلَمْ يَكونوا أكثرَ منكمْ أموالا وأَطْولَ منكم آجَالاً، طَحَنَهُمُ الثَّرَى بِكَلْكَلِه ومَزَّقَهُم بِطَوْلِه، فتلكَ عِظامُهُم بَالِيةً وبُيوتُهُم خَالِيةً عَمَّرَتْها الذِّئابُ العاوِية**".

٥- الأسلوب الخطابي يوازن بين الجمل والتراكيب والعبارات والألفاظ، فالألفاظ فيه ينبغي أن تكون فصيحة واضحة مألوفة مما يتكلم بها المخاطبون فلا يستغربونها، والجمل والعبارات قصيرة بسيطة واضحة خالية من الإغراب والتعقيد، حتى يتمكن الجمهور من متابعة الخطيب والتفاعل معه، فيفهم مقصوده، ويقف على مراده؛ إذ السامع لا يمكل سوى فرصة السماع من دون القدرة على إيقاف الخطيب الطلب بإعادة ما قال ليفهم، والخطيب أيضا لا يملك سوى فرصة الإلقاء هذه على جمهوره ومشافهة حضوره، فإذا انتقص أحد الجانبين ضاعت فائدة الخطاب، وربما ضاعت الظروف المناسبة فلا يتكرر إلقاؤه، والجمهور هم من يملكون مرجعية الحكم على الخطيب والنص، وعلى مستوى اللغة والإلقاء، ومناسبته لهم حسب أحوالهم وتفاوت درجاتهم، فإن كانوا من الخاصة كان الأسلوب عاليا رفيعا روعي فيه ذكاء المخاطبين، فيأتي بالمعاني الرَّائقة، والحِكَم العالية، والألفاظ العَزِيزة المُعَبَّر عنها بـ (السَّهْل الممتنع)؛ لأنه إذا أتى بما دون ذلك لا يُثير انفعالهم، ولا يَرُوق كلامه في أسماعهم فلا يحفلون به، وإن كانوا من العامة كان الأسلوب بسيطا، يغلب عليه طابع البساطة واليسر ليضمن الخطيب إفهام الجميع، فعليه بسهل المعاني؛ لأن تركيب المعنى ودِقَّته لا يتوصل لفهمه الذهن البسيط، وبالضرورة يستدعي ذلك سهولة دلالة الألفاظ؛ إذ هي قوالب المعاني، مع انتخاب سهلها ومتعارفها بدون ابتذال[١٠١].

٦- ولا بد أن يكون الخطيب جهير الصوت، صافية، حسن الإلقاء، مناسب الهيئة، حسن الوقوف، متزن الحركات، خبيرًا بنفسية السامعين، قادرا على الاندماج فيهم،

[١٠١] ابن عاشور، أصول الإنشاء والخطابة،/ ١٥٠، الشايب، الأسلوب، ١١٩؛ محمد أبو زهرة، الخطابة أصولها. تاريخها في أزهر عصورها عند العرب، (الناشر: دار الفكر العربي للطباعة والنشر، القاهرة، الطبعة: الثانية، ١٩٨٠م)،/ ١٣٢.

(ISSN: 2536- 9555)

وعلى فهم ما يطرأ عليهم أثناء الخطابة من فتور فيعالجه، أو غضب فيتلافاه، ويحسن انتهاز الفرص، واختيار الأوقات، والانتفاع بكل ما يفيده، جادًا مرة ملاطفا مرة أخرى حتى يظفر بما يريد(١٠٢).

وخطيبنا قس هو أول من خطب علي شَرَف أي مرتفع، وذلك أبلغ في وصول الصوت، وآكد في ملاقاة السامعين بوجهه، وتمكنه من النظر إليهم جميعا والتأثير فيهم ليس فقط بصوته ولغته بل أيضا بجسمه ووجهه، وقد كانت من عادة العرب أن يخطبوا على رواحلهم ومن فوق دوابهم، وقس بن ساعدة كان كذلك في سوق عكاظ في رواية النبي صلى الله عليه وسلم، حيث رآه وهو على جمل أورق يتكلم بكلام مونق(١٠٣).

المطلب الثاني
في تنوع الأساليب وصلتها بالمعنى

الانتقال من أسلوب إلى أسلوب من دأب الأدباء والخطباء والبلغاء لافتنانهم في الكلام وتصرفهم فيه، فالكلام إذا نقل من أسلوب إلى أسلوب كان أحسن تطرية لنشاط السامع، وإيقاظا للإصغاء إليه من إجرائه على أسلوب واحد(١٠٤)؛ لئلا يمل السامع من أسلوب واحد فينتقل إلى غيره ليجد في نفسه نشاطا للاستماع والإصغاء، ولأن الافتنان في ضروب الفصاحة أعلى من الاستمرار على ضرب واحد فلهذا وردت

---

(١٠٢) الشايب، الأسلوب،/ ١١٩، ١٢٠؛ محمد الخضر حسين، الخطابة عند العرب، تحقيق: ياسر المطيري، (الناشر: مكتبة دار المنهاج للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٣٣هـ)،/ ١٨٨– ١٩٩؛ أبو زهرة، الخطابة،/ ١٤٥، وما بعدها؛ محمد رجب البيومي، البيان النبوي، (الناشر: دار الوفاء للطباعة والنشر، المنصورة، مصر، الطبعة: الأولى، ١٤٠٧هـ– ١٩٨٧م)، ٧٣، وما بعدها.

(١٠٣) الجاحظ، البيان والتبيين،١/ ٢٥٣، ٢/ ١٨٤.

(١٠٤) أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، (الناشر: دار الكتاب العربي– بيروت، الطبعة: الثالثة– ١٤٠٧هـ)، ١/ ١٤؛ الطيبي، فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب، ١/ ٧٤٥؛ ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ٢/ ١٣٦؛ السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ٣/ ٣٣٨.

بعض آي القرآن متماثلة المقاطع وبعضها غير متماثل[١٠٥]. وليس ذلك قدحا في الأسلوب، أو الكلام الذي انتقل منه المتكلم إلى غيره، على نحو ما ذهب إليه ابن الأثيرمعللا ذلك بأنه لو كان حسنا لما مَلّ المخاطب منه[١٠٦].

وأجيب عنه بأن الملال يكون من الملذ الحسن، ألا تراهم كيف يقولون ملّ فلان التنزه في البستان، ويقولون قد مللت من أكل الحلواء، ومللت من سماع الأغاني؟ ولأن الأشياء الكريهة المملولة لا يقال لها مللتها، ألا تراهم يستقبحون قول من يقول قد ملّ المحبوس من الحبس، والمضروب من الضرب؟ فالذي ذكره ابن الأثير عكس الصحيح[١٠٧]؛ ولأن الملل نعت للسامع لا للكلام، فطبيعة النفس أنها تمل من الدوام أو الاستمرار على وتيرة واحدة، وإن كان الكلام في أعلى مراتب البلاغة والبيان، وعلى النحو الذي سلكه قس في خطبته نجد فيه علاجا لهذا الأمر؛ إذ يلجأ المتكلم إلى تنويع أسلوبه حتى لا يخرج كلامه على نسق واحد رتيب يشيع الملل أوالسأم في نفس السامع والمتلقي، فينتقل بكلامه مثلا من الإنشاء إلى الخبر، ومن الخبر إلى الإنشاء، من النداء إلى الأمر، ومن الأمر إلى الاستفهام، وتارة يستعمل الترغيب، وتارة أخرى يستعمل الترهيب، وتارة يلجأ إلى الحذف والاختصار، وتارة يعدل عن صيغة إلى أخرى لمعنى لا يتحقق إلا بهذا العدول إلى غير ذلك من أساليب حتي يصل إلى هدفه من الإقناع والاستمالة، وهو ما سنتعرف عليه من خلال النظر في خطبة قس.

يقول قس: "**أيها الناسِ؛ اجتَمِعوا وَاسمَعوا وَعُوا مَنْ عاشَ ماتَ، ومَنْ ماتَ فاتَ، وكلُّ ما هو آتٍ آتٍ...**".

الأفعال الثلاثة بصيغة الأمر يسبقها أسلوب النداء قد هيأت النفوس لاستقبال ما سيلقى عليهم الخطيب من أمور لها شأن عظيم، ونظرا لأهمية ذلك صدر كلامه

---

[١٠٥] السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ٣/ ٣٣٨.

[١٠٦] ابن الأثير، المثل السائر، ٢/ ١٣٦؛ ابن أبي الحديد، عبد الحميد بن هبة الله بن محمد بن الحسين، الفلك الدائر على المثل السائر، تحقيق: أحمد الحوفي، وآخر، (الناشر: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة- القاهرة)، ٤/ ٢٢٥.

[١٠٧] ابن أبي الحديد، الفلك الدائر على المثل السائر، ٤/ ٢٢٥.

(ISSN: 2536- 9555)

بالنداء على الجماعة، فدعوته دعوة جماعية لا تقتصر على فرد دون آخر، ثم قرن النداء بما يؤكده ويقتضيه من اجتماع المنادى عليهم، إذ هو لازم للمنادى عليه، وإلا فلماذا دعاهم ونادى عليهم؟، والجماعة لكثرتها قد يحدث شغب من بعض أفرادها فتشوش على الآخرين وتضيع عليهم الاستفادة من الخطاب فأمرهم جميعا بحسن الإصغاء وفهم ما يلقى إليهم وحفظه وتدبره، وعطف الثاني على الأول" اسمعوا وعوا" ليدلنا على أن لا فائدة للسماع بلا وعي وفهم وتدبر لمآلات الأمور، وخص الفعل (وعى) وإن كان فيه معنى الحفظ، لما في الوعي من زيادة متمثلة في الإدراك والفهم، فلا فائدة لحفظ بلا وعي وإدارك وفهم، ويقال: أوعيت المتاع، ووعيت العلم، وكلاهما من الوعاء، ولكن وعيته، خص به ما كان في السمع والقلب، ومعناه الفهم والحفظ والذكر[١٠٨]، وأكد على هذا المعنى وقواه، بجملة فعل الشرط وجوابه، في رواية، "وإذا وعيتم فانتفعوا" وذلك بالامتثال وسرعة الاستجابة.

ولو حذف الخطيب من مقولته هذه الصيغ التي حبَّبَت ورغَّبَت ورهَّبَت من خطورة عدم إجابة المنادي أو عدم الإصغاء إليه، فطرق آذانهم بالخبر غفلا من هذه الجمل الإنشائية المكثفة في إيجازها ومعناها، والتي تعد بمثابة المقدمة والتمهيد لما سيلقيه عليهم من خبر بقوله: من عاش مات ومن مات فات، هكذا بدون هذه التهيئة لضاع الكثير من أهدافه، ولا يخفى أنه يقرر حقيقة واقعة لا يختلف فيها أحد معه ولا ينكرها أو يشك في وقوعها منكر، وهي تأوي في سياق المُسَلَّمات التى ألقاها عليهم تمهيدا بما سيأتى بعدها، فمن رزقه الله العيش والحياة وكان من أهل الدنيا فلا محالة يوما سيموت وسينتهى إلى مصير ما انتهى إليه غيره، ومن مات فات حسا فلا أثر له وفات ذكره فيصير نسيا منسيا لا يتذكره أحد، وكل ما هو مقدر في علم الله فهو آت، أو كل ما هو آت إلى الدنيا من الأحياء فهو آت لا محالة، وسيأتى عليه الموت كغيره.

---

[١٠٨] ابن دُرُسْتَوَيْه، تصحيح الفصيح وشرحه،/ ١٣١؛ أَبُو جَعْفَر الفهرى، شهاب الدين أَحْمَد بن يُوسُف بن على بن يُوسُف اللَّبْلِيُّ، تحفة المجد الصريح في شرح كتاب الفصيح، تحقيق: عبد الملك بن عيضة الثبيتي، (الناشر: جامعة أم القرى– مكة المكرمة، في المحرم ١٤١٧هـ، سنة النشر: ١٤١٨هـ– ١٩٩٧م)،/ ٤٤٢.

ثم إن النداء من قس على قومه وما تلاه من دعوة للاجتماع به والسماع والفهم، مرتبط بظرف زمانى ومكاني مناسبين كشفت عنهما المناسبة التي قيلت فيها هذه الخطبة، ورواية النبي صلى الله عليه وسلم لبعضها سلَّطَت الضوء على أهميتها وأهمية ما تحمله من قيم روحية سامية، وأضفت عليها إجلالا وتعظيما وتشريفا وتنويها بفضل هذا الرجل الصالح ومكانته في قلب النبي صلى الله عليه وسلم، فالزمان زمان الجاهلية بما فيه من مساوئ ومجتمع يفتقر إلى رجل مثل قس في إيمانه وعقيدته وحلمه ورفقه بقومه، والمكان سوق عكاظ، حيث يجتمع الناس فيه يتبادلون المنافع والحاجات، ويتبارى فيه الشعراء والخطباء، فإذا بقس على جمل أورق– على عادة العرب في الخطابة على رواحلهم[١٠٩] ليتمكن من إيصال صوته إلى مسافة أكبر فيتمكن من سماعه الحضور. ينادي قومه من بني إياد واعظا فيهم يا معشر الناس من الأهل والأقارب والناس عامة أقبلوا علىَّ واسمعو ما ألقيه عليكم، وعوه في صدوركم واحفظوه في عقولكم.

وثنى كلامه بعد الأمر بالاجتماع وحسن الاستماع بذكر الموت والحياة لأن ذلك من الأساليب الخطابية المناسبة في مقام الوعظ والتنبيه على الاعتبار بأحوال الموتى، وفيها دليل على وجود الخالق الذي ركب في المخلوقات الموت والحياة[١١٠]، فذكر الموت إذن ليس مقصودا بذاته من دعوة الخطيب، وليس فيه إلا تقرير أمر معروف خبره للجميع، وواقع ملموس غير مجحود، ولو كان هذا هدف الخطيب لانفض الناس من حوله فلا جديد في خبره، وإنما قصده أن يَدِلف من المُسَلَّم الذي لا شك فيه– وذلك بعد أن مَهَّد ووطَّأ ورقَّق القلوب وفتح في العقول كوة للتفكير– إلى ما هم عليه من حال الشك والإنكار وعبادة غير الله، كأنه يقول لهم: إن كان أمر الموت والحياة هكذا حقيقة تعاينونها فانظروا بحواسكم وعقولكم إلى هذه العوالم الكونية من حولكم، وما تحويه من دلائل وبراهين ساطعة تدل على صنعة الخالق وإبداعه، فلا يمكن أن تصدر هذه إلا عن إله واحد حكيم مستحق للعبادة والتوحيد ليس من جنس

[١٠٩] الجاحظ، البيان والتبيين، ٢/ ١٨٤.

[١١٠] ابن درستويه، خبر قس بن ساعدة،/ ١٧١.

(ISSN: 2536- 9555)

ما تعبدونه من الأصنام والأوثان. فنراه يقول: **آياتٌ مُحْكَماتٌ، مَطَرٌ ونباتٌ، وَآباءٌ وأُمَّهاتٌ، وذاهبٌ وآتٍ، ضَوءٌ وظَلامٌ، وبِرٌّ وآثام، ولِباسٌ ومَرْكَبٌ، وَمَطْعَمٌ ومشربٌ، ونجومٌ تَمورُ، وبحورٌ لا تَغورُ، وسَقفٌ مرفوعٌ، ومِهادٌ موضوعٌ، ليلٌ داجٍ، وسماءٌ ذاتُ أبراجٍ، وأرضٌ ذاتُ فِجاجٍ، وبحار ذات أمواج، إنّ في السماءِ لخبرا**" إلى أن يصل إلى الغرض الذي من أجله دعاهم، وهو كالشئ المخفي زادهم تشويقا إلى معرفته بما ساقه من دلائل عليه فيقول: **أَقسمَ قسٌّ بالله قَسَماً لا حانثا فيه ولا آثما: إن لله دِينا هو أحبُّ إليه من دِينكم الذي أنتم عليه، ونبيّا حانَ حينُه، وأظلَّكُم أَوانُه، فطُوبَى لمَنْ أدركَه فآمنَ بهِ وَهدَاه، وويلٌ لمَنْ خَالفَه وعَصَاه**"[١١١].

فبعد أن قدم الأدلة المادية التي يعاينونها من حولهم والمتمثلة في مظاهر الكون المختلفة من مطر ونبات وآباء وأمهات وليل ونهار وسماء ذات ابراج وأرض ذات فجاج وبحار وأنهار وجبال ونجوم ومطعم ومركب تدل على وحدانية الخالق لها ساق خبره مدعوما بأكثر من مؤكد؛ ليزيل ما علق في نفوسهم من جحد وإنكار، حيث أدرك أنه يسير في الطريق ذاته الذي سلكه المرشدون والمصلحون والدعاة إلى الحنيفية ملة إبراهيم عليه السلام، وأن دعوته لهذا السبب ستجابه بالإنكار والرفض والتعنت من هؤلاء الذين دعاهم إلى التوحيد، على الرغم من كونهم هم أهله وعشيرته وهو خطيبهم ومرشدهم، ومن ثم عرض خبره مدعوما بصورة القسم وأكده بمفعوله المطلق المشتق من فعله (أقسم) فكانه قال: والله أو بالله إن لله دينا.. فأتى بالقسم مكررا حين أظهر الفعل منه والمقدر في قولنا والله أو بالله، وهو أقوى وآكد، ثم اسند الفعل إلى المقسم به (اقسم بالله) الذي يؤمن به ويدعوهم إليه وكل ذلك يؤكد الكلام ويقويه، فضلا عن إظهار الجدية وخطورة الموضوع الذي يعرضه عليهم حتى ألجأه ذلك إلى هذا القسم المغلظ والمؤكد بمفعوله المطلق، فإثبات لفظ القسم مشعر في المقام الخطابي بأن المتكلم حريص على مزيد التأكيد في كلامه[١١٢]، ولم يدع لهم

---

[١١١] الأصفهاني، دلائل النبوة،/ ١٠٣؛ ابن الأثير، منال الطالب في شرح الطوال الغرائب،/١٣٠.

[١١٢] ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر، التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»، (الناشر: الدار التونسية للنشر– تونس، سنة النشر: ١٩٨٤م) ١/ ٦٤٦.

قس معذرة ولا حجة حين أكد كلامه بمؤكد آخر في صورة الجملة الإسمية المصدرة بإن المكسورة وقدم خبرها شبه الجملة (لله) الذي هو محور دعوته وخطابه.

وقد راوح الخطيب أسلوبه بين الترغيب والترهيب كي يصل إلى هدفه، فتجده في أسلوب القسم يعدل عن استخدام الواو لما فيها من شدة وقوة قد تنفرهم منه ومن دعوته إلى استخدام الباء التي تدل على طلب جملة جواب القسم بلطف ولين، وبالحلف على الرجل على سبيل الاستعطاف، كقولك: بالله لما زرتني، وبحياتك أخبرني[١١٣]، وأيضا لمبالغتهم في التَّيَمُّنِ باسم الله استحبُّوا الابتداء به[١١٤]، فتعينت الباء لاختصاصها بالاستعمال مَعَ ظهور فعل القسم[١١٥] حتى إذا ما استقر الخبر المؤكد بالقسم والجملة الإسمية المؤكدة بإنَّ ازدادت حدة الخطيب عليهم بغرض إصلاحهم وثنيهم عما هم فيه، فلجأ تحقيقا لهذا الهدف إلى أسلوب الترغيب والترهيب لتكتمل الصورة في أذهانهم وترسخ دعوته في قلوبهم، ويزول عن نفوسهم أي إنكار أو شك، فقد آن أوان نبي الله وحانت دعوته لكم، فطوبى لمن اتبعه واهتدى بهديه والويل والخسران لمن عصاه وضل عن طريقه.

ومن أساليب الترغيب والاستمالة التي استخدمها خطيبنا تخصيص قومه من بني إياد بالنداء دون غيرهم ممن كانوا معهم في سوق عكاظ، فقال يا معشر بني إياد، تلطفا منه لاستمالتهم إليه، وإشعارهم بمدى قربه منهم، فهم أهله وعشيرته التي تنتهي معه إلى أب واحد (إياد)، وعشيرة الرجل إنما سميت بذلك لمعاشرة بعضهم بعضا[١١٦]، وقد قيل: المعشر: أهل الرجل[١١٧]. ناهيك عن ما توحي إليه لفظة

---

[١١٣] ابن يعيش، شرح المفصل، ٥/ ٢٥٦.

[١١٤] صدر الأفاضل القاسم بن الحسين الخوارزمي، شرح «المفصل في صنعة الإعراب، للزمخشري» الموسوم بـ «التخمير»، تحقيق: عبدالرحمن العثيمين، (الناشر: دار الغرب الإسلامي، بيروت– لبنان، الطبعة: الأولى، ١٩٩٠م)، ٤/ ٢٥.

[١١٥] القاسم بن علي بن محمد بن عثمان، أبو محمد الحريري البصري، درة الغواص في أوهام الخواص، تحقيق: عرفات مطرجي، (الناشر: مؤسسة الكتب الثقافية– بيروت الطبعة: الأولى، ١٤١٨/١٩٩٨هـ)، ٣٢.

[١١٦] ابن فارس، مقاييس اللغة، (ع ش ر)، ٤/ ٣٢٦.

(ISSN: 2536- 9555)

معشر من دلالة وحس في نفوس المتلقين، فالمعشر: مفعل من المعاشرة، وهو الاجتماع والمخالطة[١١٨]، وعشيرك الذي يعاشرك، وهو اسم للجماعة لا واحد له من لفظه[١١٩]، وذكر الخليل أن اسم المعشر يطلق على كل جماعة أمرهم واحد، كمعشر الأنبياء، والمسلمين، والناس، ومعشر الجن، ومعشر الإنس[١٢٠]، ومعشر بني إياد من هذا النحو، فهم باجتماعهم على أب واحد ومخالطة بعضهم بعضا بحكم القبيلة الواحدة التي ينتمون إليها أمرهم واحد، فناسب قس بين أسلوبه باختيار لفظ (معشر) وحال المنادى عليهم من قبيلته، وكأنه بهذا النداء أراد أن ينبههم إلى ذلك فيهم، لا سيما وأن قسا من هذه الجماعة، فهو يحثهم على أن يجمعوا أمرهم على ما يدعوهم إليه من عبادة الإله الواحد.

والأدلة التي قدمها قس تدليلا على صحة دعوته بسيطة تتناسب مع عقل هؤلاء القوم وبساطته، فهي تخلو من أي فكر فلسفي منطقي قد يشوش عليهم فكرهم أو يفسد عليهم فطرتهم، فهم يعاينون هذه الآيات الباهرات بأعينهم ويلمسون آثارها وينتفعون بها، وكلها شاهدة على وجود خالق حكيم مدبر لها، وهو بهذا الأسلوب البسيط السهل يجلي عن عقائدهم ما ران عليها من شرك ووثنية، بمعنى أن في بساطة دعوته ما يكشف عن الإيمان الفطري عند الإنسان بالله، فهو بهذه الأدلة المادية البسيطة حين وجه قومه إلى النظر فيها قد خاطب فيهم إيمانهم الفطري

---

[١١٧] أبو البقاء عبد الله بن الحسين بن عبد الله العكبري، شرح ديوان المتنبي، تحقيق: مصطفى السقا، وآخرين، (الناشر: دار المعرفة– بيروت)، ٢/ ٣٣٤؛ ابن منظور، لسان العرب، (ع ش ر)، ٤/ ٥٧٤؛ الزبيدي، تاج العروس، (ع ش ر)، ١٢/ ٥٣.

[١١٨] ابن فارس، مقاييس اللغة، (ع ش ر)، ٤/ ٣٢٤؛ أحمد بن عبد الله بن سليمان بن محمد بن سليمان، أبو العلاء المعري، معجز أحمد (شرح لديوان المتنبي)، (الكتاب مرقم آليا غير موافق للمطبوع، من عمل المكتبة الشاملة)،/ ١١٩.

[١١٩] أبو على أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقي الأصفهاني، شرح ديوان الحماسة، تحقيق: غريد الشيخ، (الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٤ هـ- ٢٠٠٣ م)،/ ٢٣.

[١٢٠] الفراهيدي، العين، (ع ش ر)، ١/ ٢٤٨.

الكائن فيهم، وفي جميع البشر بما أودعه الله تعالى في كل إنسان سلمت فطرته من التشويه من إدراك يحمله على الإقرار بوجود الله تعالى، وقد سأل الأصمعي أعرابيا بم عرفت ربك؟ فقال: البعرة تدل على البعير وآثار الأقدام تدل على المسير، فسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج ألا تدل على اللطيف الخبير[١٢١]. أو هو في هذا الصدد يغرس فيهم الإيمان الحقيقي اليقيني بالله، ولكي يصلوا إلى هذا الإيمان اليقيني عليهم أن يتأملوا الكون بما فيه من آيات باهرات تدل على فساد معتقداتهم الوثنية الفاسدة وترشدهم إلى الدين الحنيف، وخطابهم بالتأمل والتدبر في هذه الآيات مردّه إلى توسم الخطيب في جمهوره الذكاء والفطانة.

وقد قرب هذا التقسيم اللطيف الذي لجأ إليه الخطيب هذه الآيات إلى عقولهم وأقنعهم بلطف بصدق دعوته، فبعضها آيات سماوية علوية وأخرى أرضية سفلية، يحتويهما الليل والنهار والظلام والضياء، فالسماء بما فيها من أبراج ونجوم وشمس وقمر والأرض بما فيها من أنهار وبحار وجبال ونبات وفجاج كلها آثار تدل على وجود الخالق بديع السموات والأرض، ولعلك تلحظ فيها هذه الثنائية العجيبة وهذا التزاوج الفريد بينها من ليل ونهار وبر وآثام وشمس وقمر وسماء وأرض ومطر ونبات وذاهب وآت وسقف مرفوع ومهاد موضوع والآباء والأجداد والمريض والعواد... إلخ. وكأن قسا قصد من هذه الثنائية التقابلية التي عمد إليها في إقناعه إياهم أن يومئ إليهم بأن هذه الآيات كلها آباء وامهات لا تصلح أي واحدة منها أن تكون إلها يعبد من دون الله الواحد الذي لا زوج له ولا ثان أو شريك.

---

[١٢١] محيي الدين، ابن الخطيب، محمد بن قاسم بن يعقوب الأماسي، روض الأخيار المنتخب من ربيع الأبرار، (الناشر: دار القلم العربي، حلب، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣هـ)،/ ١٦؛ شهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، (تحقيق: إحسان عباس، (الناشر: دار صادر– بيروت– لبنان، الطبعة: الأولى، ١٩٩٧م)، ٥/ ٢٨٩؛ شمس الدين، أبو العون محمد بن أحمد بن سالم السفاريني الحنبلي، لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية لشرح الدرة المضية في عقد الفرقة المرضية، (الناشر: مؤسسة الخافقين ومكتبتها– دمشق، الطبعة: الثانية– ١٤٠٢هـ– ١٩٨٢م)، ٢٧٢/١.

(ISSN: 2536- 9555)

وهو في هذا الصدد عرض هذا التقسيم اللطيف في ثوبه اللفظي المناسب للين والاستمالة، فاختار ألفاظًا مناسبة لغرضه الدعوي في الخطبة، من حيث ذكر الأدلة المادية الدالة على وجود الله من سماء وأرض ونجوم وكواكب وليل ونهار وبحار وأنهار، وذكره الموت، والاتعاظ بالأمم الغابرة وبما شيدوه من ملك وحضارة، وهي ألفاظ في غاية الرقة والجزالة مأنوسة في كلامهم جارية على ألسنتهم، غير وحشية ولا غريبة، وهي مناسبة لتودده إليهم وترغيبهم في دعوتهم[١٢٢].

والأساليب الإنشائية في الخطبة تراها بادية أمامك من أول النص لتؤدي وظيفتها في سبك النص مع تنوع أساليبها، فهي تبدأ بأسلوب النداء (أيها الناس)، وفي رواية (يا معشر إياد)، والنداء هو التصويت بالمنادى لإقباله عليك[١٢٣]، أي طلبه، فالنداء يقتضي الخطاب[١٢٤]، فلا ينادى بحرف النداء الغائب ولا المتكلم، أما الغائب فلعدم حضوره وفوات فائدة النداء من حيث الانتفاع بما يسمع. وأما الثاني المتكلم فلأنه لا يعقل أن ينادي المتكلم نفسه، فالغيبة والتكلم يناقضان أسلوب النداء؛ إذ لا ينادى إلا المخاطب فيسمع ويقبل، وقوم قس أو المخصوصون بالنداء من عامة الناس شهود بحضرته في سوق عكاظ، فناداهم للاجتماع به، ولو كانوا غائبين عنه لم يجمعهم السوق لما صح منه توجيه الخطاب إليهم بصيغة النداء.

ولكون النداء هو رفع الصوت بحرف من حروف النداء، أو هو التصويت بالمنادي ليقبل عليك فإنه يرتبط بشعور نفسي داخلي تحركه النفس عند وجود مسببه من استغاثة أو ندبة أو طلب ودعاء مطلقا، وهي عملية فطرية تحدث بصورة تلقائية عند المتكلم، ونجد لها مثالا واضحا لدى الأطفال عند التعبير عن مطالبهم وأوجاعهم وأحزانهم، وفرحهم وسرورهم وتعجبهم على اختلاف التعبيرعن هذه المشاعر التي تتحرك في نفوسهم، وهم بدافعهم الفطري يعبرون عنها بأصواتهم، وقد يستدل على اختلاف المعاني نغمات الأصوات، وما يقترن بها من بكاء أو ضحك أو مظاهر

---

[١٢٢] الخضر حسين، أصول الإنشاء والخطابة،/ ١٠٥، ١٠٦؛

[١٢٣] يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم، الحسيني العلويّ، الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، (الناشر: المكتبة العنصرية– بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣هـ)، ٣/ ١٦١.

[١٢٤] البغدادي، خزانة الأدب، ٢/ ١٤٠.

دهشة أو تلهف لمطلوب يريدونه، أو انزعاج من أمر يكرهونه أو حركة تدل على ألم يعانون منه، وبقي لهذا المظهر من مظاهر التعبيرات الفطريّة التلقائيّة أثر في اللغة، وبدأ المفكّر المعبّر بالكلمة يتصرف باستخدام أدوات النداء في غير طلب الإجابة لأمر ما، كحال الطفل، إلا أنه خصّص بعض الأدوات لبعض المعاني، وجعلَ القرائن القولية والحالية تدل على مشاعره النفسيَّة التي يريد التعبير عنها[١٢٥].

وإنما استهلها بالنداء؛ لأن النداء موضوع في أصل اللغة لتنبيه المدعوين[١٢٦] ليستميلهم إلى ما سيلقيه عليهم، والابتداء في الخطبة هو أول ما يطرق السمع من الكلام، فإذا كان الابتداء لائقا بالمعنى الوارد بعده توفرت الدواعي للاستماع إليه. والابتداء بالنداء في خطبة قس من هذا الباب الحسن اللائق؛ إذ كان الابتداء بالنداء مما يوقظ السامعين للإصغاء إليه[١٢٧]، ويدعوهم إلى الإقبال عليه.

ومن ثم فقد نبههم إلى أهمية ما يدعوهم إليه بالنداء عليهم للاجتماع والسماع إليه بوعي وفهم، وبادر بالتنبيه فحذف الأداة ونواها، وباب النداء باب حذف وإيجاز، لكثرة تردده في الكلام[١٢٨]؛ وفي الحذف إشعار بوجوب الإسراع في التلبية والاستجابة، ناهيك عما يدل عليه هذا الحذف من مدى قربهم منه، ودنوه منهم، في المعنى والحس، فهم قريبون من نفسه؛ إذ كانوا هم أهله وعشيرته، يقف منهم موقف الناصح الأمين المشفق بأهله وذوي أرحامه، وقريبون منه في موضع النداء عليهم من السوق، فهذا المعنى يتوافق مع حذف أداة النداء في صدر الخطبة في رواية (أيها الناس)،

---

[١٢٥] عبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة، البلاغة العربية، (الناشر: دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٦هـ- ١٩٩٦م)، ١/ ٢٤٦.

[١٢٦] ابن الشجري، ضياء الدين أبو السعادات هبة الله بن علي بن حمزة، أمالي ابن الشجري، تحقيق: محمود محمد الطناحي، (الناشر: مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٤١٣هـ- ١٩٩١م)، ١/ ٤٢٣؛ أبو منصور ابن الجواليقى، موهوب بن أحمد بن محمد بن الخضر بن الحسن، شرح أدب الكاتب لابن قتيبة، (الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت)، ٣٥.

[١٢٧] ضياء الدين بن الأثير، نصر الله بن محمد، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق: أحمد الحوفي، وآخر، (الناشر: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة- القاهرة)، ٣/ ٩٨؛

[١٢٨] الأصفهاني، شرح ديوان الحماسة، ٨٥٨.

(ISSN: 2536- 9555)

فالمنادى عليهم في أقرب المنازل وأدنى الدرجات من المنادي، حتى لم يحتج قس إلى ذكر أداة نداء؛ لشدة قربه منهم[١٢٩].

ولو كانوا على بعد منه حساً في المكان، أو معنى لغفلتهم عنه للزمه إثبات أداة للنداء، واختيار الممدودة منها (يا) لبعدهم عنه، مكانًا ومعنى. وأكثر الروايات (أيها الناس) بحذف ياء النداء، وفي رواية أنس بن مالك (يا أيها الناس) بإثبات الياء[١٣٠]، وعلى هذا الوجه في الرواية استخدم قس الياء الموضوعة في نداء البعيد، لبعدهم عنه حقيقة في السوق، وتفرقهم فيه، أو لانشغالهم عنه فيه بقضاء مصالحهم بيعا وشراء فنزلهم منزلة البعيدين. بالإضافة إلى أن النداء خطاب، وليس كل خطاب نداء، فتصدرت في كلامه جريا على سنن العرب في خطاب النداء لتفصل الياء بين خطاب النداء وغيره ممن ليس داخلا فيه، ولتدل على أن الأسلوب أسلوب نداء[١٣١].

والاختصار والحذف ههنا في مستهل الخطبة أبلغ في أداء المعنى، وأنسب في مقام الخطاب، فيكفيهم التنبيه والأمر بالاجتماع والسماع والوعي، وكأن المعنى عند قس من غير حذف هو: دعا قس الناس، أو بني إياد من عشيرته وهم في سوق عكاظ فأقبلوا عليه واجتمعوا به، وأمرهم بالسماع والإصغاء إليه فسمعوا وأصغوا، فاختزل المعاني لضرب من الإيجاز بديع يصل قس من خلاله مباشرة للغرض الذي كشف عنه فيما تلا ذلك له من كلام.

والتعبير في صدر الخطبة بالنداء واختصاصه بهذه الصيغة (أيها) يعني (يا أيها) دون غيرها من النداءات لما فيها من وجوه التأكيد والمبالغة والتنبيه؛ وإنما دخلها التأكيد من حيث كون الياء فيها موضوعة في الأصل لخطاب البعيد (النداء)، صوت يهتف به الرجل بمن يناديه، فإذا خوطب بها القريب المقاطن فذلك للتأكيد المؤذن

---

[١٢٩] محمد بن عبد الله بن العباس، أبو الحسن، ابن الوراق، علل النحو، تحقيق: محمود الدرويش، (الناشر: مكتبة الرشد– الرياض– السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ– ١٩٩٩م)،/ ٣٤٨؛ حنبكة، البلاغة العربية، ١/ ٢٤٢.

[١٣٠] البيهقي، دلائل النبوة، ٢/ ٢٠٥.

[١٣١] ابن يعيش، شرح المفصل، ٥/ ٥١؛ السيوطي، همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، (الناشر: المكتبة التوفيقية– مصر)، ٢/ ٣٤.

بأن الخطاب الذي يتلوه معنيّ به جدا[١٣٢]، فياء النداء على الرغم من أنها محذوفة إلا أنها منوية مقدرة، فهي كالمذكورة في النص فيها معنى التنبيه والتأكيد،، وفي رواية: يا أيها الناس، بإثبات ياء النداء، والهاء من (أيها) فيها معنى التنبيه ثانيا، وتكرير التنبيه تقوية وتأكيد، وعلة الإتيان بها أن المنادى على الحقيقة في قوله: (أيها الناس)، أو (يا أيها الناس) هم الناس، وكأنه قال: يا الناس، ولكن لما كان القصد تأكيد التنبيه وتقويته وقدروا تكرير حرف النداء كرهوا تكرير حرف النداء (يا يا الناس) فعوضوا عن حرف النداء الثانية "هاء" فقالوا: أيها الناس، فضلا عن ما في (أي) من التعويض؛ إذ العرب تكره أن تقول: يا الرجل، وما أشبه ذلك؛ لئلا يأتوا بالألف واللام بعد حرف النداء، فجعلوها وصلة لنداء المعارف بالألف واللام[١٣٣]. و(أي) من أيها مبهمة، وما في (أي) وما تلاها من التدرج من الإبهام فيها إلى التوضيح، في المخاطب (الناس). كل هذه الوجوه في (يا أيها) تصب في معنى التأكيد والمبالغة والتنبيه.

قال الزمخشري: "و«أى» وصلة إلى نداء ما فيه الألف واللام... وهو اسم مبهم مفتقر إلى ما يوضحه ويزيل إبهامه، فلا بد أن يردفه اسم جنس أو ما يجرى مجراه يتصف به حتى يصح المقصود بالنداء، فالذي يعمل فيه حرف النداء هو «أىّ» والاسم التابع له صفته.... وفي هذا التدرّج من الإبهام إلى التوضيح ضرب من التأكيد والتشديد. وكلمة التنبيه المقحمة بين الصفة وموصوفها لفائدتين: معاضدة حرف النداء ومكانفته بتأكيد معناه، ووقوعها عوضا مما يستحقه أىّ من الإضافة"[١٣٤]. وقد علل السيوطي فيما حكاه نقلا عن الزمخشري وغيره من العلماء كثرة النداء بـ"يَا أَيُّها" في القرآن الكريم دون غيره لأن فيه أوجها من التأكيد وأسبابًا من

---

[١٣٢] الزمخشري، الكشاف، ١/ ٨٩؛ شرف الدين الحسين بن عبد الله الطيبي، فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب (حاشية الطيبي على الكشاف)، تحقيق: إياد محمد الغوج، (الناشر: جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، الطبعة: الأولى، ١٤٣٤هـ- ٢٠١٣م)، ٢٨٨.

[١٣٣] ابن الشجري، أمالي ابن الشجري، ٢/ ٣٦٤، ٣٧٠.

[١٣٤] الزمخشري، الكشاف، ١/ ٨٩، ٩٠.

(ISSN: 2536- 9555)

المبالغة منها ما في"يا" من التأكيد والتنبِيه وما في "ها" من التنبيه وما في التدرج من الإبهام في"أيّ" إلى التوضيح[١٣٥].

والمقام يناسب المبالغة والتأكيد؛ لأن كل ما نادى به قس في خطبته الناس أو عشيرته من الأمر بالاجتماع والسماع والحفظ وذكر الموت، وتعديد آيات الله الباهرات في الكون، والدالة على وجوده تعالى ووحدانيته، وذكر أحوال الأمم الغابرة، وما كانو عليه من منعة وقوة وكفر وعناد، وما آل إليه مصيرهم، وغير ذلك مما نص عليه من الأمور العظيمة والمعاني الجليلة يوجب عليهم أن يتيقظوا لها، وأن يميلوا بقلوبهم وبصائرهم إليها، ولكنهم عنها غافلون فاقتضى الحال أن ينادوا بما هو أبلغ وآكد[١٣٦].

وإنما قدم النداء على أفعال الأمر في صدر الخطبة فقال: "أيها الناس" أو "يا معشر إياد"، ولم يقل: اسمعو وعوا أيها الناس، أو اسمعوا وعو يا معشر إياد؛ وذلك لما فيه من الملاطفة والمبالغة في تحصيل المراد؛ لأن كل من ناديته فإن نفسه تتوق إلى الإجابة وتتطلع إلى ما يراد من دعوته من أمر أو نهي أو غيرهما من أنواع الطلب، ولا تزال نفسه تتوق لتعلم ما يطلب منها؛ لذا قدم قس النداء على الأمر في صدر النص؛ لما فيه من الشوق والتوقان إلى إجابة المنادي، وأيضًا جريًا على ما ألف في هذا الأسلوب من الإيقاظ والتنبيه؛ لأن كل من طلب أمرا من الأمور من غيره فلابد من إيقاظه وتنبيهه؛ ليكون مستعدا للامتثال له[١٣٧]. قال الخوارزمي: "وأما من حيث النظر على ترتيب الجمل فذاك أنه قد قدم النداء على الأمر، فقيل يا أرض ابلعي ويا سماء أقلعي دون أن يقال ابلعي يا أرض وأقلعي يا سماء جريا على مقتضى اللازم فيمن كان مأمورا حقيقة من تقديم التنبيه ليتمكن الأمر الوارد عقيبه في نفس المنادي قصدا بذلك لمعنى الترشيح"[١٣٨].

---

[١٣٥] السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، (الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة: ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م)، ٣/ ٢٨٣.

[١٣٦] الزمخشري، الكشاف، ٨٩/١؛ السيوطي، الإتقان، ٢٨٣/٣؛ حنبكة، البلاغة العربية، ٢٤٣/١.

[١٣٧] العلويّ، الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، ٣/ ١٣٥.

[١٣٨] الخوازمي، مفتاح العلوم،/ ٤١٩.

والنداء في صدر الخطبة بـ (أيها الناس) أولى وأبلغ، وأكثر مناسبة من النداء بـ (يا معشر إياد)، تلك الصيغة التي وردت في حشو الخطبة؛ إذ كانت الخطبة في سوق يجتمع فيه الناس، وهم أخلاط من قبائل شتى جمعتهم فيه المصالح وتبادل المنافع، والمصلح الداعية يهمه أن تصل دعوته إلى كل الناس، لا يخص بها قبيلا دون قبيل، ثم إنك لتلحظ في ثنايا الخطبة أن خطيبنا قس لجأ إلى استعمال أسلوب النداء تارة أخرى فقال: "يا معشر إياد" ولكأني به لما اطمأن إلى اجتماع الناس ومنهم إياد لسماع ما يدعوهم إليه قصد أن يخص بني إياد قومه بالدعوة بعد دخولهم في عموم الناس وجملتهم لإظهار مزيد الاهتمام والعناية بهم؛ ولأنهم الأقرب إليه فهم أهله وعشيرته، وهم الأولى بسماع نصيحته، وقبول دعوته، ومن ثم الفوز بخير ما يدعوهم إليه.

وقد كرر الخطيب أسلوب النداء في ثنايا خطبته (يا معشر إياد)، إذ كان النداء هو الوسيلة المثلى في إيقاظهم وتنبيههم إلى الإصغاء إلى ما يلقى إليهم مرة بعد مرة، ونداء بعد نداء لئلا يشردوا عنه بأذهانهم، أو ينأوا عنه بأبدانهم، وهو أسلوب يليق بالدعاة والوعاظ، به يوقظ السامعين من غفلتهم، ويجذبهم جذبًا إلى حسن الاستماع والإصغاء عند تلقى الموعظة والنصيحة. كما أن قرع أذن المخاطب بالنداء فيه تحريض له وإغراء يبعثه على الاستماع إلى الملقى إليه، فضلا عما في النداء بـ (يا) الموضوعة للبعيد من بيان لحرص قس في وقوع النداء للمخاطب، وطلب إقباله[١٣٩].

ففي النداء المتكرر من قس (يا بني إياد، أو يا معشر إياد أين الآباء والأجداد..) ما يوحي بحبه لهم وإشفاقه عليهم نظرا لوشائج القربى وعلائق النسب الوثيقة التي تربطه بهم، وفي هذه الاستفهامات المتكررة والتالية للنداء أيضا ما يدعوهم إلى الاستجابة إليه؛ لأن هذا النصح والإرشاد، وذاك التحذير والتخويف إنما هو صادر من قريب منهم مخلص أمين يخفق قلبه بحبهم[١٤٠]. وحرص قس هذا على قومه من بني إياد ينبع من أن أمر قومه يهمه ويعنيه، فوجه إليهم هذه الصور الخطابية

[١٣٩] محمد بن عرفة الدسوقي، حاشية الدسوقي على مختصر المعاني لسعد الدين التفتازاني، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، (الناشر: المكتبة العصرية، بيروت)،/ ٣٠٤.

[١٤٠] السيد عمارة، دراسة في نصوص العصر الجاهلي تحليل وتذوق، (الناشر: مكتبة المتنبي)،/ ١٧٣.

(ISSN: 2536- 9555)

الاستفهامية المتنوعة، والتي هي في حقيقتها الإنشائية طلب، ولا يخفى أن الطلب إنما يكون لمن يهمك أمره ويعنيك شأنه، لا لمن وجوده وعدمه عندك منزلته سواء[١٤١].

وقد عدل قس عن النداء على قومه أو على الناس مباشرة بأعيانهم وأسمائهم، ممن كانوا منهم في سوق عكاظ، فلم يقل مثلا: يا فلان بن فلان، ويا فلان بن فلان، فعددهم بسمائهم إلى هذا التركيب الإضافي، (يا معشر إياد، أو يا بني إياد)، أو هذا التركيب الوصفي (أيها الناس)، وإنما عدل عن ذلك إلى هذا الأسلوب الأخير، لعدم علمه بأعيانهم جميعا؛ إذ كانوا أخلاطا محتشدين في سوق عكاظ، فقد يعرف الخطيب بعضهم بأسمائهم وأعيانهم، وقد يجهل بعضهم، فتخير النداء بالوصف أو بالإضافة لما فيه من عمومية المنادى عليهم، وشموله لكل من سمع النداء، خلافا للنداء بالعلم (يا فلان) لما في فيه من اختصاص المنادى بالنداء. هذا فضلا عما في هذا الأسلوب من تعظيم وتكريم، فالأصل في النداء أن يكون باسم المنادى العلم إذا كان معروفا عند المتكلم، ولا يعدل عنه إلا لضرب من تفخيم وتعظيم المخاطبين بالنداء وتكريمهم، كما في قوله تعالى: "يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ"[١٤٢]، أو التقرب والتلطف معهم في الخطاب، نحو:: يَا بُنَيَّ، وَيَا أَبَتِ[١٤٣].

ولحرصه على دعوته إلى الله ابتدأ خطبته بالنداء وثناه بالأوامر:(اجتمعوا واسمعو وعوا)، وفي ثنايا خطبته أكثر من الاستفهامات، وجميع هذه الصيغ الإنشائية تنبئ عن طلب الخطيب حصول الفعل من المخاطبين على الفور، بمجرد النطق بالصيغة؛ وذلك بقرينة موالاة هذه الصيغ في صدر الخطبة، فهي تقرع آذان المخاطبين بسرعة الاستجابة والامتثال لأمر في غاية الأهمية يستوجب منهم ذلك، من حيث إن مقتضى الطبع في كون الشئ مطلوبا أن يراد حصوله في الحال، فإذا قيل لهم: يا معشر إياد، أو أيها الناس كان معناه: أقبلوا علىَّ على الفور، وإذا قال

---

[١٤١] السكاكي، مفتاح العلوم،/ ٣١٧.

[١٤٢] سورة الأحزاب، الآية: ١.

[١٤٣] ابن عاشور، التحرير والتنوير، ٢٩/ ٢٢٥؛ البقاعي، برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، (الناشر: دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد– الهند، الطبعة: الأولى، (١٣٨٩– ١٤٠٤هـ) (١٩٦٩– ١٩٨٤م)، ٩/ ٢٨٦، ٢٦٤/١٦.

لهم: اجتمعو واسمعوا وعوا كان معناه: افعلوا ذلك على وجه السرعة في الحال، وأيضا كما هو الشأن في الاستفهام يقتضي فورية الجواب عن المستفهم عنه، ولا يستفاد التراخي منها إلا بقرينة[١٤٤].

وعلى هذا النسق المتوالي في الأساليب الإنشائية أتبع الخطيب صيغة النداء صيغة الأمر، الدالة على طلب شئ غير حاصل وقت الطلب، وهذان الأسلوبان بينهما من الانسجام والتوافق الملحوظ ما لا يخفى على المتأمل في خفايا هذه الأساليب الخطابية، ليس فقط لاشتراكهما في الإنشاء والطلب بل إنك لتلحظ أن في قوله: (أيها الناس، ويا معشر إياد) فيه معنى الأمر، بل هي أمر في صورة النداء، كأنه قال مخاطبا إياهم: تنبهوا لما أقوله واسمعوه وعوه جيدا، أو أقبلوا على واسمعوا وعوا، فلا ينبو بهذ الشكل أحد الأسلوبين بمجاورة أخيه لا في اللفظ، ولا في المعنى؛ إذ كانت جميعها تجري على هذا النسق البلاغي البديع في إيراد المعنى بعد التنبيه عليه ليتمكن من عقل المخاطبين. قال ابن الشجري: "وقد أدخل قوم الدعاء الذى هو النّداء، فى باب الأمر، قالوا: لأنك إذا قلت: يا رجل، فكأنك قلت: تنبّه واسمع"[١٤٥]. وذكر ابن سنان أن قولك: يا زيد المراد به أقبل يا زيد، وعلى هذا المعنى فهو داخل في قسم الأمر"[١٤٦].

وإن كان دخوله في قسم الأمر من حيث معناه الذي هو طلب الإقبال لا يعني الإتيان بالمأمور به من خلال صيغة النداء التي هي مجرد دعاء ونداء بصوت يدل المدعو على أنك تريد منه أن يقبل عليك لتخاطبه بما تريد أن تخاطبه به من أمر أو نهي أو استفهام، فليس في النداء إخبار ولا استخبار ولا أمر على حقيقته أو نهي، وإنما أنت تلقيه إلى مدعوك لغرض من هذا المعاني ما شئت منها بعد دعائك

---

[١٤٤] أبو يعقوب السكاكي، يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي، مفتاح العلوم، تحقيق: نعيم زرزور، (الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان، الطبعة: الثانية، ١٤٠٧هـ– ١٩٨٧م)،/ ٣٢٠؛ حامد عونى، المنهاج الواضح للبلاغة، (الناشر: المكتبة الأزهرية للتراث)، ٨٩، ٩٠.

[١٤٥] ابن الشجري، أمالي ابن الشجري، ١/ ٤٢٤.

[١٤٦] أبو محمد عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي الحلبي، سر الفصاحة، (الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة: الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ–١٩٨٢م"،/ ٤٤.

(ISSN: 2536- 9555)

إياه[١٤٧]، فالنداء لما كان يحمل في معناه الأمر بالاقبال كان داخلا فيه من هذه الجهة، فهو كالمقدمة والتمهيد حتى يتهيأ المخاطب لتلقي الأمر أو غيره من صيغ الطلب.

ونظرا لهذه العلاقة بين النداء والأمر رأينا أنهما في الغالب الأعم لا ينفكان عن بعضهما البعض في كلام العرب الفصحاء، فإذا سمعت نداء أدركت أنه سيعقبه طلب بأمر أو ترك أو استفهام، وقد جرت أساليب العرب على هذا النحو، كما رأينا عند قس في صدر خطبته فقد أتبع أسلوب النداء الأمر في قوله: (أيها الناس اسمعو وعوا)، وفي حشوالخطبة نرى هذا الطرز جليا في كلامه، فقال: "يا معشرَ إيادٍ أينَ الآباءُ والأجدادُ وأينَ المَريضُ والعُوَّاد"، فأتبع النداء طلب العلم بالمستفهم عنه مجازا. قال ابن الشجري: "النداء يصحب فى الأكثر الأغلب الأمر، وما جرى مجراه من الطّلب والنّهى"[١٤٨].

وبناء عليه فمن قال بأن أسلوب النداء يدخل في الأمر نظر إليه من هذه الجهة، أعني أن المنادى مخاطب وكذا المأمور مخاطب، والنداء لا يكاد ينفك عن الأمر وما جرى مجرى الأمر من الطلب والنهي، ولهذا السبب لا يكاد يوجد في كتاب الله نداء ينفك عن جملة أمرية أو نهيية تالية له[١٤٩]، كما في قوله تعالى: "يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ"[١٥٠]، وفي قوله جل ثناؤه: "يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ"[١٥١]، وقوله: "يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ"[١٥٢]، وقوله تعالى: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ"[١٥٣]، وقوله: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ"[١٥٤].

---

[١٤٧] ابن الشجري، أمالي ابن شجري، ١/ ٤١٧.

[١٤٨] ابن الشجري، أمالي ابن الشجري، ٢/ ٤١١.

[١٤٩] أبو البقاء العكبري، شرح ديوان المتنبي، ١/٣٠٠؛ ابن الشجري، أمالي ابن الشجري، ٢/٤١١.

[١٥٠] سورة البقرة، الآية: ١٢.

[١٥١] سورة الأحزاب، الآية: ١.

[١٥٢] سورة الزمر، الآية: ١٦.

[١٥٣] سورة الحجرات، الآية: ١.

[١٥٤] سورة غافر، الآية: ٣٦.

كما ورد بعد أسلوب النداء الجملة الاستفهامية في قول قس: يا معشر إياد أين الآباء والأجداد.."؟، وهو أسلوب متسع يكثر في كلام العرب، يجرى مجرى الأمر، من حيث كون الثلاثة (النداء والأمر والاستفهام) خطابا طلبيا، على النحو الذي سبق، والاستفهام طلب العلم بشئ غير معلوم مستفهم عنه غير حاصل وقت الطلب[١٥٥]، وقد ورد هذا النسق الأسلوبي في القرآن الكريم أيضا، وليس مجرد وروده كمثال مستعمل بل إن مجيء الجمل الاستفهامية مع النداء، يكثر كثرة مجيء الأمر والنهى، كما في قول الله جل ثناؤه: "يَأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا"[١٥٦]، وقوله: "وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ"[١٥٧]، وقوله: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ"[١٥٨]، إلى غير ذلك[١٥٩].

وذكر الآباء والأجداد في جملة الاستفهام المقترنة بالنداء، واختصاصهم بدعوة قس للتأمل في الموت ومآل الموتي، لبيان أهمية هؤلاء المختصين بالاستفهام بعد النداء بالنسبة للخطيب وللمخاطبين، ومدى حرصه على هدايتهم ودعوتهم، فهم أهله وعشيرته، ولأنهم من حيث النظر إلى قبورهم ومعرفتهم بأسمائهم وألقابهم وأحوالهم لصلة القرابة والرحم التي تجمعهم بهم أبلغ وآكد في تأكيد دعوته وحرصه على هدايتهم.

وفي قوله: (اسمعوا وعوا) رتب الوعي على السماع فعطفه عليه؛ لأنه يقع تاليا له مترتبا عليه، فالمسموعات تقرع الأذن أولا ثم تنتقل إلى مركز الحس السمعي في المخ

---

[١٥٥] الجواليقي، شرح أدب الكاتب لابن قتيبة،/ ٣٥؛ الخوارزمي، مفتاح العلوم،/ ١١٤؛ عبد المتعال الصعيدي، بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة، (الناشر: مكتبة الآداب، الطبعة: السابعة عشر: ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م)، ٢/ ٢٤٩؛ أحمد بن إبراهيم بن مصطفى الهاشمي، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، تحقيق: يوسف الصميلي، (الناشر: المكتبة العصرية، بيروت)،/ ٦٩، ٧٨.

[١٥٦] سورة مريم، الآية: ٤٢.

[١٥٧] سورة غافر، الآية: ٤١.

[١٥٨] سورة الصف، الآية: ٢.

[١٥٩] ابن الشجري، أمالي ابن الشجري، ٢/ ٤١٣، ٤١٥.

(ISSN: 2536- 9555)

فيحولها إلى مدركات ومعان تحفظ في الذهن، ولا فائدة من سماع بلا وعي وإدراك، والعطف بالواو الذي تجده بين الجملتين، لا يستفاد منه ترتيبا في الخارج، وإن حصل في الذهن؛ لأن الترتيب مناف للعطف بالواو، فهي عند الجمهور تفيد مطلق الجمع بين المتعاطفين والتشريك في الحكم لا غير، ولا تفيد ترتيبا مع التعقيب كالذي نجده في العطف بالفاء، ولا ترتيبا مع التراخي كالذي نجده في العطف بثم[١٦٠]، وإنما الترتيب الذي استفيد من الجملتين (الوعي بعد السماع) مفهوم من السياق الخارجي المقترن بهما لا من الربط بين الجملتين بالواو العاطفة، وإنما عطف الثاني منهما على الأول؛ لأنهما متغايران، فالمَوْعِيّ غير المسموع، وهو أعلى درجة منه؛ ولأن كل وعي يلزمه سماع بإصغاء، وليس بالضرورة أن يستلزم السماع وعيا، ومن ثم فالوعي أعم من السماع، فكل وعي سماع وحفظ وإدراك للمسموع، وليس كل سماع وعيا، فقد نسمع أشياء لمجرد السماع فحسب بلا وعي أو تدبر وحفظ لها.

ولما كان الأمر لازما للنداء من جهة السماع والإصغاء قال: اسمعوا وعوا، ولأنهم أهله وعشيرته، فلعل فيهم من هو أكبر منه سنا وأرفع منه منزلة بين العشيرة فلا يصح والحالة هذي أن يكون الأمر بالسماع والوعي على معناه الحقيقي من علو واستعلاء الآمر وانحطاط المأمور عنه، والإتيان بالمأمور به على سبيل الحتم والوجوب، ولكن لأن قس داعية وخطيب، ومصلح ومرشد فقد دعاهم على سبيل النصح والإرشاد حاضا إياهم وحاثا على حسن السماع والإصغاء. وحمل صيغة الأمر على هذا المعنى المفهوم من سياق الكلام وقرائن الأحوال أولى وأوفق لما في ذلك من إلانة القلوب واستمالة العقول، لما في النصح والإرشاد والحض والحث من لين ومودة ينتج عنهما سرعة الاستجابة وقبول النصح، فالمخاطب على هذا الوجه له حرية الاختيار والتفكير والموازنة بين ما يعتقده وبين ما يدعوهم إليه قس، فيتقبل ما ينصح به أو يرفضه، وذلك بخلاف حمل الأمر على معناه الحقيقي لما يترتب على

---

[١٦٠] أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد، الجرجاني، دلائل الإعجاز، تحقيق: محمود شاكر، (الناشر: مطبعة المدني بالقاهرة– دار المدني بجدة، الطبعة: الثالثة ١٤١٣هـ– ١٩٩٢م)،/ ٢٢٤؛ السيوطي، همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، ٣/ ١٨٥، ١٨٦.

معنى الوجوب واللزوم فيه من نفور المأمور وعناده أو رفضه لما يملى عليه أمرا إلزاميا واجب القيام به.

وقد بدأ قس خطبته بذكر الموت ومصير الأحياء في الدنيا ثم عرج على بيان الأدلة المادية في الكون على وجود الله ووحدانيته واستحقاقه بالعبادة، ثم انتقل مرة أخرى إلى موضوع الموت، ولكن بأسلوب مغاير للنمط السابق، يختلف فيه الخطيب بين الخبر والإنشاء ليصل إلى هدفه من خلال ذكره الأمم السالفة وأحوالهم وما آل إليه مصيرهم قصدا من ذلك أخذ العبرة والعظة والتفكر فيما سيؤول إليه حالهم إن هم ساروا في الطريق نفسه الذي سارت فيه هذه الأمم الغابرة من الشرك والكفر والظلم والطغيان، ولقد ساق لنا عظته هذه في صورة أسلوب خبري مؤكد بأكثر من مؤكد **"إنّ في السماءِ لخبرا، وإنّ في الأرض لعِبَرا"**، والجملة الخبرية تحتل مركزا أساسيا في نص خطبة قس، وتصب في تحقيق غرض الخطيب ومقصده الدعوي من إقناع المخاطبين واستمالتهم.

فتجده ههنا لإزلة أي شبهة أو إنكار قد يعلق في أذهان مخاطبيه بخصوص ما يلقى عليهم في مضمون الخبر يلجأ إلى تأكيد خطابه بأكثر من مؤكد، حيث أكد الخبر في قوله: "إنّ في السماءِ لخبرا" بـ "إن" وبتقديم خبرها على اسمها، وكذا بلام الابتداء الداخلة على اسمها المؤخر، ولم يكتف بهذه الصورة ثلاثية المؤكدات بل كررها مرة أخرى في قوله: "وإنّ في الأرض لعِبَرا" ما يزيد من تقوية الخبر وتأكيده حتى لا يبقي في أنفسهم أدنى شك أو إنكار، فهو يحملهم بهذا الصنيع على تصديق خبره، وقد أخفى هذا الخبرالذي في السماء، إذ لم يصرح به، واكتفى بالكشف لنا عن بعض العبر والآيات فى الأرض، وهي تكفي قومه في معرفة خبر السماء إن تدبروا وفهموا، إنه خبر الحق والعدل والحساب والجزاء، فآيات الأرض والسماء والكون من حولهم، وآخبار الأمم الخالية تخبرنا بحق بخبر الإله الواحد مالك الكون بأرضه وسمائه، المستحق بإفراده بالعبادة، فألا تبا وخسرانا لهؤلاء الغافلين عن فهم هذه الحقيقة منكم، ومن الأمم الخالية.

والتدرج في سوق الأخبار سمة بارزة في خطبة قس، فهذه الدلائل المتمثلة في الظواهر الكونية السماوية والأرضية وغيرها مما ينتفع به الإنسان في حياته من

(ISSN: 2536- 9555)

مركب ومشرب ومطعم ساقها قس في صور خبرية بسيطة خالية من أي مؤكد؛ (مَنْ عَاشَ مَاتَ، وَمَنْ مَاتَ فَاتَ، وَكُلُّ مَا هُوَ آتٍ آتٍ، لَيْلٌ دَاجٍ، وَسَمَاءٌ ذَاتُ أَبْرَاجٍ، بِحَارٌ ذات أمواج...)؛ وذلك لتتناسب في بساطتها بساطة هؤلاء من قومه والمدعوين من الناس إلى توحيد الله والتأمل فيها بفكر مجرد من أي قيد أو شرط، فلم يجذبهم إلى دعوته جذبا، ولم ينزلهم في خطابه إياهم منزلة المترددين، أو المنكرين الجاحدين؛ ولهذا السبب لم يصدمهم في صدر الخطبة عند سرد هذه الدلائل والآيات بأي خبر مؤكد بل عاملهم معاملة من خلا ذهنه، وسلمت نيتهم فيقبلون ما يلقى عليهم من غير حاجة إلى تأكيد. ولعل خطيبنا نظر إلى شدة ظهور هذه الآيات وعظمة منفعتها، فنزلها منزلة الأخبار الصادقة التي لا تحتمل إلا وجها واحدا، أو الأخبار البديهية التي لا يمكن لأحد جحدها.

ويستمر قس في عرض هذا النوع من الأخبار إلى أن قال (إِنَّ فِي السَّمَاءِ لَخَبَرًا، وَإِنَّ فِي الْأَرْضِ لَعِبَرًا) فتدرج معهم في عرض خطابه الخبري، حيث انتقل بهم إلى التأكيد لإزالة أي إنكار، ثم عاود قس مرة أخبار إلى عرض جملة من الأخبار هي من المعين ذاته التي بدأ بها خطبته، بسيطة خالية من أي تأكيد، يجمعها ماديتها المحسوسة ومنفعتها العظيمة لهم، فقال: (مِهَادٌ مَوْضُوعٌ، وَسَقْفٌ مَرْفُوعٌ، وَنُجُومٌ تَمُورُ، وَبِحَارٌ لَا تَغُورُ...) ثم عرج تارة أخرى على أسلوب التأكيد بأن لله دينا هو أحب وأرضى من دينهم الذي هم عليه، فقال: (إن لله دينا هو أحب إليه من دِينكم الذي أنتم عليه، ونبيّا حان حينُه) وهذا الأسلوب الأخير يمثل نقطة الارتكاز في خطبته ومحور الموضوع الذي دعاهم إليه، ولكي يطمئن بأنه قد تمكن من قلوبهم، واستولى على عقولهم عرضه قس مشتملا على أكثر من مؤكد حتى لا يبقى في نفوسهم أدنى شك أو إنكار، فأكد الخبر بإن وإسمية الجملة وتقديم خبرها على اسمها، وقد قرن هذا المحور الرئيس بمحور النبوة وظهور نبي آخر الزمان، حان وقته وأظلهم زمانه، فعطف (ونبيا قد حان حينه) على الأولى فشاركتها في التوكيد والتقوية.

فقوله: (ونبيا قد حان حينه) جملة خبرية أكدها بحرف (قد) الداخل على الفعل الماضي، فأفاد التحقيق أي التأكيد؛ لأن (قد) الداخلة على الجملة الفعلية الماضوية تفيد مفاد (إن واللام) في الجملة الإسمية، أي تفيد توكيدا قويا، من حيث إن قد تفيد

التحقيق، والفعل الماضي مستعمل في التحقيق[١٦١]؛ لأنه موضوع لحدث تحقق وقوعه بالفعل، فعادل التوكيد بهما التوكيد بـ إن واللام في الجملة الإسمية السابقة عليها.

كما أن التعبير بالفعل الماضي (حان حينه وأظلكم أوانه) بدلا من الفعل المضارع (يحين ويظلكم) إذ هو في الأصل لما يحن بعد في زمن خطاب قس للإشعار بتحقق وقوعه، وأن مجيئه واقع لا محالة، فهو كقوله تعالى: "أتى أمر الله"[١٦٢]؛ لأن المضي يستلزم تحقق الوقوع[١٦٣]، ولا يقع الماضي موضع المستقبل فيعبر بالماضي إلا إذا كان المستقبل معلوم الوقوع[١٦٤]، فضلا عما في التعبير بالماضي من دلالة قرب الوقوع والتنبيه على ضيق زمانه[١٦٥]؛ إذ لما كان أمر مجيئه بما تقدمه من إراهصات وقف عليها أصحاب الفطر السوية أضحى أمرا حتميا متحقق الوقوع عبر بالفعل الماضي لانزاله منزلة ما تحقق وقوعه، فقد جاء وقته حقا، ولاريب فقد أظلهم زمانه.

وورود اسم التفضيل في قوله: (إن لله دينا هو أحب إليه من دينكم) ليس على بابه الذي يقتضي المفاضلة بين اثنين اشتركا في صفة وزاد أحدهما على الآخر فيها[١٦٦]، بل هو مسلوب المفاضلة، وإن جئ به على صورة أفعل التفضيل، وهذا

---

[١٦١] ابن عاشور، التحرير والتنوير، ١٨/ ٨.

[١٦٢] سورة الأنبياء، الآية: ١.

[١٦٣] أبو حيان، البحر المحيط، ٦/ ١٨٥؛ الكفوي، الكليات،/ ١٣٩؛ ابن عاشور، التحرير والتنوير، ٢٠/ ٤٦.

[١٦٤] أبو إسحق إبراهيم بن موسى الشاطبي، المقاصد الشافية في شرح الخلاصة الكافية (شرح ألفية ابن مالك)، تحقيق، عبدالرحمن العثيمين، (الناشر: معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى– مكة المكرمة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٨هـ– ٢٠٠٧م)، ١/ ١٢٦؛ الدسوقي، حاشية الدسوقي على مختصر المعاني، ١/ ٧٤٦، ٢/ ١١٠.

[١٦٥] أحمد بن محمد الخفاجي المصري، شرح درة الغواص في أوهام الخواص، تحقيق: عبدالحفيظ فرغلي، (الناشر: دار الجيل، بيروت– لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٧هـ– ١٩٩٦م)،/ ٦٩؛ الكفوي، الكليات،/ ١٧٨.

[١٦٦] الصبان، حاشية الصبان على شرح الأشموني، ٣/ ٦٤.

(ISSN: 2536- 9555)

الأسلوب جائز شائع في كلام العرب[١٦٧]؛ إذ من المعلوم بداهة أنه لا شراكة في محبة عند الله بين دين حق وأديان أخرى باطلة، والمعنى الذي قصده قس أن الدين الذي يحبه الله هو الحنيفية، التوحيد الحق، وما عداه من أديان فهي لا تشترك في هذه الصفة أصلا، فهي غير محبوبة إلى الله، ولا مرغوب فيها، والعلة في مجئ هذا الأسلوب الخطابي عند قس على صورة أفعل التفضيل المقيد بتحقق أنه لا شركة في الصفة بين المفضل والمفضل عليه، أنه قد ورد على سبيل إلزام الخصم وتنبيهه على خطأ ما ارتكبه[١٦٨] من عبادة غير الله.

وفي الجملة الخبرية (بل هو الله الواحد المعبود) أظهر الموصوف لفظ الجلالة (الله) مع جواز الاختصار على الصفة، فكان له أن يقول: بل هو الواحد، وإنما عدل عن ذلك لإظهار التفخيم والتعظيم بذكر الموصوف (لفظ الجلالة (الله)، ولترسيخ الموصوف في أذهان المخاطبين، الذي هو معبوده أي معبود قس، وهذا اسمه عنده "الله"، فبذكره يترسخ اسم الإله المعبود بحق، وفيه الإصرار على إظهاره ليميزه في عقولهم باسمه عن هذه الآلهة الباطلة التي يتخذونها من دون الله، فضلا عما في ذكره من تنويه بالدين الجديد والذي يمثل عنوانه الأكبر (الله) الواحد المعبود، ولهذا الغرض ذاته صرح بلفظ الجلالة (الله) أيضا في قوله: إِنَّ لله دِينًا هُوَ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ دِينِكُمُ الَّذِي أَنْتُمْ عَلَيْهِ"، وكان له أن يعدل عنه إلى القول مثلا: إن للرب، أو إن للإله دينا، فضلا عما في تكراره للفظ الجلالة في أكثر من موضع من النص من تقوية وتأكيد على هذه المقاصد.

وتخير من صفات الله ما يناسب المقام، في خطاب قومه ودعوتهم، فاقتصر على وصفه تعالى بالوحدانية تلك التي في تقريرها وإثباتها لله ينتفى معها الشرك، وفي إثباتها تعريض بفساد معتقداتهم، والله في العقيدة الحنيفية التي عليها الخطيب هو المعبود بحق، صفة أخرى لازمة ومستحقة لمن اتصف بالوحدانية، لأن من كانت

---

[١٦٧] القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ٩/ ٧٦؛ ابن عاشور، التحرير والتنوير، ٢١/ ٢٦٢.

[١٦٨] ابو حيان، البحر المحيط، ٨/ ٢٥٦؛ أبوالفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ضبط وتصحيح، علي عبدالباري، (الناشر: دار الكتب العلمية– بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٥هـ– ١٩٩٤م)، ١٠/ ٢١٥.

صفته الوحدانية فلا شك هو المستحق بأن يكون معبودا دون غيره من آلهتكم التي تعبدونها من دون الله.

وقوله: (طوبى لمن آمن به فهداه، وويل لمن خالفه وعصاه) من باب الترغيب والترهيب، الترغيب في قبول دعوته إلى التوحيد، والتخويف لمن عصى ذلك منهم، وهي تصب في الجانب الدعوي الخطابي في التبشير بالنبي صلى الله عليه وسلم. وأصل طوبى: فعلى من الطيب، أي العيش الطيب[١٦٩]، من خير ونعم وفرح وقرة عين لمن آمن به، فطوبى فيه معنى الدعاء[١٧٠]، والوعد، وهي كلمةٌ عربيةٌ، تقول العرب: طُوبى لكَ إنْ فَعَلْتَ كذا[١٧١]، وقيل: طوبى اسم من أسماء الجنة، وقال ابن عباس، وسعيد بن جبير: اسم الجنة بالحبشية، وقيل: بالهندية[١٧٢]. والمعنى عند قس على التوجيه الأخير أن الجنة وعد لمن آمن به واهتدى بهديه، ويقابل هذا ما أورده قس في مقام الترهيب والتخويف من أن الويل لمن عصاه، والويل: العذاب والهلاك، أو هو واد في جهنم، فقابل قس في هاتين الجملتين بين الاسمين المتضادين (طوبى- الويل) للمعنيين المتضادين الإيمان والمعصية التي يراد منها الكفر، فوضح المعنى المراد وقواه، فضلا عن كونها أيضا تدل على الوعيد والدعاء على من عصاه.

---

[١٦٩] الأزهري، تهذيب اللغة، (ط و ب)، ١٤/ ٢٩؛ الجوهري، الصحاح (ط و ب)، ١/ ١٧٣.

[١٧٠] ابن سيده، المخصص، تحقيق: خليل إبراهم جفال، (الناشر: دار إحياء التراث العربي- بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٧هـ- ١٩٩٦م)، ٤/ ٤٨٥.

[١٧١] سَلَمة بن مُسْلِم العَوْتبي الصُحاري، الإبانة في اللغة العربية، تحقيق: عبدالكريم خليفة، وآخرين، (الناشر: وزارة التراث القومي والثقافة- مسقط- سلطنة عمان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ- ١٩٩٩م)، ٣/ ٤٣٩.

[١٧٢] جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، غريب الحديث، تحقيق: عبد المعطي أمين القلعجي، (الناشر: دار الكتب العلمية- بيروت- لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٠٥- ١٩٨٥)، ٢/ ٤٣؛ عبد الله بن بَرّي بن عبد الجبار المقدسي المصري، في التعريب والمعرب، تحقيق إبراهيم السامرائي، (الناشر: مؤسسة الرسالة- بيروت)،/ ١٢١؛ الصحاري، الإبانة في اللغة العربية، ٣/ ٤٣٩؛ ابن الأثير، النهاية في غريب الحدث والأثر، ٣/ ١٤١؛ ابن منظور، لسان العرب، (ط ي ب)، ١/ ٥٦٥.

(ISSN: 2536- 9555)

وَالْوَيْل: كلمةٌ تقال لكل من وقع في عذاب أو هلكة، وأصله فِي اللغة: الهلاك والعذاب، وذكر بعضهم أن الويل: واد في جهنم[١٧٣] وكل من وقع في هلكه دعا بالويل، ومنه قوله: "يُوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا"[١٧٤]، فالأصل فيه الدعاء بالهلاك، ثم شاع استعماله في الزجر والردع عما لا ينبغي فعله[١٧٥]، وتسعمل أيضا بسبب كثرة الاستعمال في التعجب المشوب بالزجر[١٧٦]، فتقال للتعجب من شدة سوء حال المتحدث عنه[١٧٧]، وفي موضع التعجب يقولها الإنسان لمن يحب ولمن يبغض[١٧٨]. قال ابن عاشور: " وهو يستعمل دعاء وتعجبا وزجرا مثل قولهم: لا أب لك، وثكلتك أمك"[١٧٩]، ولكأني بقس بعد أن أقام الأدلة المادية على توحيده تعالى وفساد ما هم عليه من معتقدات باطلة قال لهم خاصا المخالفين منهم زاجرا إياهم ومتعجبا من حالهم ومآلهم ويل لكم ما تفعلون بعد ذلك كله؟! وكرر هذا المعنى في صورة أخرى (تبًا لأرباب الغفلة من من الأمم الخالية) تأكيدا وتحقيقا بأن الأمر بلغ منتهاه، ولا عذر لهؤلاء العصاة، أرباب الغفلة الذين أهملو النظر فيما سقته لهم من أدلة وآيات.

وقوله: (تبا لأرباب الغفلة من الأمم الخالية والقرون الماضية) التبُّ: الخسران والهلاك، يقال: تبًّا لفلان، يحمل على الدعاء، أي ألزمه الله هلاكا وخسرانا[١٨٠]،

---

[١٧٣] الأزهري، تهذيب اللغة، (و ي ل)، ١٥/ ٣٢٦، ٣٢٧؛ الجوهري، الصحاح، (و ي ل)، ١٥/ ١٨٤٦، ١٨٤٧؛ ابن منظور، لسان العرب، (و ي ل)،

[١٧٤] سورة الكهف، الآية: ٤٩.

[١٧٥] الزمخشري، الكشاف، ٣/ ٤٣٢؛ البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، ١٤/٣٥٧.

[١٧٦] البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، ٢٠/ ١٨٤.

[١٧٧] البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، ٢٣/ ٢٤٩؛ بدر الدين أبو محمد عبد الله ابن الإمام أبي عبد الله محمد بن فرحون المدني، العدة في إعراب العمدة، تحقيق: مكتب دار الهدى، (الناشر: دار الإمام البخاري– الدوحة، الطبعة: الأولى)، ٢/ ٥٧٢.

[١٧٨] الأشموني، شرح الأشموني لألفية ابن مالك، ١/ ٤٧٩؛ الصبان، حاشية الصبان على شرح الأشموني لألفية ابن مالك، ٢/ ١٧٨.

[١٧٩] ابن عاشور، التحرير والتنوير، ١/ ٥٧٦.

[١٨٠] الأزهري، تهذيب اللغة، (ت ب ب)، ١٤/١٨٢؛ الجوهري، الصحاح، (ت ب ب)، ١/٩٠.

ونصبه على أنه مصدر محمول على فعله، كما تقول: سقيا لفلان، معناه: سقي فلان سقيا[١٨١]، ومثله: بُعْدا، وسُحقا وتعسا وخيبة، وقد ذكر سيبويه وكذا غيره من النحاة فيما ينصب من المصادر بإضمار فعل محذوف هذه المصادر السابقة؛ وإنما تنصب تبًّا وأشباهها من هذه المصادر إذا ذُكر مذكور فدعوتَ له أو عليه، على إضمار الفعل، كأَنك قلت: سقاك الله سقياً، ورعاك "الله" رعياً، وخيبك الله خيبة. فكل هذا وأشباهه على هذا ينتصب[١٨٢] نيابة عن الفعل، فنزل منزلته كما هو في الاستعمال في مقام الدعاء مدحا أو ذما[١٨٣].

وإنما اختُزل الفعل ها هنا لأنهم جعلوا المصدر بدلا من اللفظ بالفعل، كما جُعل الحَذَر بدلا من احذرْ. وكذلك هذا كأنه بدل من سقاك اللهُ ورعاك " اللهُ "، ومن خَيَّبَك الله[١٨٤]، ومن أضله أو أهلكه الله في معنى تبّا له، وهذا الاختزال يكشف لنا عن نفسية خاصة للمتكلم[١٨٥] بهذه الأساليب، ومنها تبًّا عند قس بن ساعدة؛ لأن قولك: تبًّا أو سقيا بدلا من أهلكه الله تبّا، أي هلاكا وخسرانا، وسقاك الله سقيا إسراع في المدح والذم، ويكشف لنا عن مدى رضا المتكلم أو سخطه باعتبار قصده من الخطاب، فإذا رضى جاء التعبير بالمدح دالا على ذلك، وإذا سخط أو غضب جاء التعبير بالذم دالا على ذلك.

وحذف الفعل ههنا وإقامة المصدر مقامه في معرض المدح أو الذم طريق من طرائق العرب في الحذف والاختصار رغبة في الإيجاز والتأكيد[١٨٦]، مع ارتباطه

---

[١٨١] الفراهيدي، العين، (ت ب ب)، ٨/ ١١٠؛ الأزهري، تهذيب اللغة، (ت ب ب)، ١٤/ ١٨٢.

[١٨٢] سيبويه،عمرو بن عثمان بن قنبر، الكتاب، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، (الناشر: مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٨هـ- ١٩٨٨م)، ١/ ٣١١، ٣١٢؛ المبرد، محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الثمالى الأزدي، المقتضب، تحقيق: محمد عبد الخالق عظيمة، الناشر: عالم الكتب.- بيروت)، ٣/ ٢٢١؛

[١٨٣] ابن عاشور، التحرير والتنوير، ١٢/ ٧٩.

[١٨٤] سيبويه، الكتاب، ١/ ٣١٢.

[١٨٥] أحمد حسن الزيات، مجلة الرسالة، عدد ٥، ص: ٨٨٨.

[١٨٦] السكاكي، مفتاح العلوم،/ ٤٢٠.

(ISSN: 2536- 9555)

بقصد المتكلم في الاسراع بالمدح أو الذم، حيث حذفوا الفعل وجعلوا الحال المشاهدة دالة عليه، ونائبة عنه، فلو أكدته بذكر الفعل مع مصدره لنقضت الغرض؛ لأن في توكيده بذكر فعله تثبيتًا للفظه المختزل، ورجوعًا عن المعتزم من حذفه واطراحه والاكتفاء بغيره منه"[١٨٧].

ومن ثم فإن قول قس (تبّا لأرباب الغفلة) من الجائز أن يكون (تبًّا) خرجت مخرج الدعاء عليهم، لقصد التحقير والتفظيع[١٨٨]، أي هلاكا وخسرانا لهؤلاء المتصفين بالغفلة، ولا يبعد أيضا أن يكون كلامه هذا خرج مخرج التعجب من هؤلاء الغافلين، كأنه قال: أعجب لأرباب الغفلة كيف لا ينظرون في آيات الله من حولهم، ولا يقصد به محض الدعاء عليهم، وإنما هو على حد قولهم: قاتله الله ما أشعره[١٨٩]، كما قصد من إضافة التباب إلى أرباب الغفلة اختصاص الخسران والهلاك بهذه الطائفة، أي حق لهم، واللام في (تبا لأرباب) متعلقة بالمصدر، زيدت للتقوية[١٩٠]، ولتبيين المعنيّ بالدعاء[١٩١]عليهم بالخسران والهلاك.

والويل مصدر لا فعل له من لفظه، وقيل: فعله "وال" "ويلاً". ورَدّه بعضهم، وقال: هو مصنوع، يعني: "وال"، ولم تجيء من هذه المادة التي فاؤها "واو" وعينها "ياء" إلا: "ويل"، و "ويح"، و"ويس" و: ويب[١٩٢]، وذكر ابن فارس أن لفظ الويل كان

---

[١٨٧] أبو الفتح عثمان بن جني، الخصائص، تحقيق: محمد النجار، (الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة: الرابعة)، ١/ ٢٨٨.

[١٨٨] ابن عاشور، التحرير والتنوير، ٢٦/ ٨٦.

[١٨٩] أبو حيان الأندلسي، التذييل والتكميل في شرح كتاب التسهيل، تحقيق: حسن هنداوي، (الناشر: دار كنوز إشبيليا بالرياض، الطبعة: الأولى، (١٤١٨– ١٤٤٥هـ)– (١٩٩٧– ٢٠٢٤م)، ٦/ ١٦٥؛ السيوطي، همع الهوامع في شرح جمع الجوامع،٢/ ١٠٧.

[١٩٠] أبو العرفان محمد بن علي الصبان، حاشية الصبان على شرح الأشمونى لألفية ابن مالك، (الناشر: دار الكتب العلمية بيروت– لبنان الطبعة: الأولى ١٤١٧هـ–١٩٩٧م)، ٢/٣٢٤؛ السكاكي، مفتاح البلاغة،/ ٤٢٠.

[١٩١] سيبويه، الكتاب، ١/ ٣١٢؛ ابن عاشور، التحرير والتنوير، ٢٦/ ٨٦.

[١٩٢] بدر الدين أبو محمد بن فرحون، العدة في إعراب العمدة،، ١/ ٦٤.

له فِعْل وتصريف دَرَج ولم يبق منه إلا "الويل" قطُّ [١٩٣]، وقد بنى جملة تبّا لأرباب الغفلة على النصب، كما بنى جملة (والويل لمن خالفه وعصاه) على الرفع، وهو في معنى النصب، أي ويلا لمن خالفه، على معنى الفعل، أي الدعاء، مفعول به أو مفعول مطلق لفعل محذف، أي ألزمه الله الويل، مصدر في معنى المنصوب، ويلا؛ لأنه نائب عن الفعل، وهي أيضا متوافقة مع المصدر تبّا لأرباب الغفلة في المعنى والفعل أعني الدعاء، وإن اختلفت الثانية في الرفع، والذي حسن الرفع فيها بل عينته اقتران المصدر بـ أل (الويل)؛ لأنه صار معرفة فقوت فيه الابتداء[١٩٤]، والرفع في باب المصادر التي أصلها النيابة عَن أفعالها يدل على الثبوت والاستقرار بخلاف النصب فلا يدل على التجدد والحدوث المستفاد من عامله الذي هو الفعل فإنه موضوع للدلالة عليه بخلاف الجملة الإسمية فإنها موضوعة للدلالة على مجرّد الثبوت مجردا عن قيد التجدد والحدوث فناسب أن يقصد بها الدوام والثبات بقرينة المقام ومعونته[١٩٥].

وقوله: "أَرَضُوا بِالْمُقَامِ فَأَقَامُوا"؟ عدل قس عن مصدر الفعل الأصلي إلى المصدر الميمي (مقام)، فلم يقل: أرضوا بالإقامة فأقاموا؛ لأن المقام فيه مزيد معنى لا تجده في المصدر الأصلي للفعل الإقامة، فمع أنه يتفق مع المصدر من جهة دلالته على ما يدل عليه[١٩٦]، فإن الميمي يتفوق عليه في قوة الدلالة وتأكيدها[١٩٧]،

---

[١٩٣] ابن فارس، الصاحبي،/ ١٣٠.

[١٩٤] الأخفش، أبوالحسن المجاشعي، معاني القرآن،تحقيق: هدى محمود قراعة، (الناشر: مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٤١١ هـ- ١٩٩٠ م)، ١/ ١٢٥، ١٢٦؛ أبو حيان الأندلسي، التذييل والتكميل في شرح كتاب التسهيل، ٧/ ١٦٨، ١٦٩؛ السيوطي، همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، ٢/ ١٠٧.

[١٩٥] أبو البقاء الكفوي، الكليات، ٨١٤.

[١٩٦] تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، الناشر: عالم الكتب، الطبعة: الخامسة ١٤٢٧هـ- ٢٠٠٦م)،/ ٩١.

[١٩٧] عباس حسن، النحو الوافي، (الناشر: دار المعارف، الطبعة: الطبعة الخامسة عشرة)، ٣/٢٣١؛ محمد عبدالعزيز النجار ضياء السالك إلى ألفية ابن مالك، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت- لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ- ١٩٩٩م)، ٣/ ٤٧.

(ISSN: 2536- 9555)

فالمعنى الذي يفهم من إيراد قس المقام بدلا من المصدر الأصلي للفعل الإقامة أن يدل به على تمكنهم وقوة إقامتهم ورسوخهم الثابت في الموضع الذي نزلوا فيه[١٩٨]، فضلا عن جواز أن يحمل المعنى في المصدر الميمي (المقام) عند قس على اسم الزمان والمكان زيادة على دلالته المصدرية، أي أرضوا بموضع الإقامة من المقابر، أو أرضوا بزمن الإقامة؟، أي بهذا الزمن الطويل الذي أقاموا فيه وامتد إلى يوم خطابه وإلى يوم قيامتهم، ولا شك أن التعبير بقوله أرضوا بالمقام بدلا من أرضوا بموضع الإقامة أو زمن الإقامة أبلغ وأقوى؛ إذ لا يخفى ما في المصدر الميمي (المقام) من إيجاز في الكلام[١٩٩]. كما أن هذا الأسلوب الاشتقاقي زاد من الناحية التطريبية المستفاد من التجنيس الاشتقاقي بين (المقام– فأقاموا) فوضح المعنى ونبه المخاطب عليه.

ولا يقال: رضي بالمقام إلا عند النزول والاستراحة بعد عناء وسفر ورحلة طويلة شاقة، وكأن قسا يومئ من خلال هذه المفردة التي وظفها في نصه إلى رحلة الحياة وما يكتنفها من عناء ومشقة لا ينتهيان إلا برحلة أخيرة إلى المقابر بها يرضى المقيم عن إقامته ويستريح انتظارا للبعث والحساب، واتجاها إلى هذا المعنى ربط قس بين الموت والنوم، فعادل بين الموت والنوم من حيث إن النوم يشبه الموت، فكلاهما سلب للإرادة والعقل والإدراك والحركة، والروح تخرج من الجسد خروجا كليا تاما بالموت، وخروجا جزئيا بالنوم. قال تعالى: "اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى"[٢٠٠]. على أن النوم يعقبه يقظة والموت يعقبه حياة للبعث والحساب، فذكر في الجملة التالية متسائلا (أم تركوا هناك فناموا)؟.

وبناها للمجهول (تُرِكوا) للتركيز على الفعل، أي الترك، بغض النظر عن فاعل الفعل، الذي تركهم هناك حتى ناموا، وفيه إشارة على إهمالهم وتركهم، أي أنهم أضحوا نسيا منسيا، وهذا حال الأموات مع تعاقب الأزمان لا يبقى من ذكراهم سوى

---

[١٩٨] ابن عاشور، التحرير والتنوير، ٢/ ٣٤٤.

[١٩٩] ابن عاشور، التحرير والتنوير، ١٦/ ٢٤٥.

[٢٠٠] سورة الزمر، الآية:٤٢.

شواهد قبورهم، أو ربما ما تحمله من أسماء لهم. فبناء الفعل للمجهول رسم لنا صورة هؤلاء الذين ماتوا وما آل إليه أمرهم من نسيان وترك، وفي بنائه أيضا للمجهول رعاية للسجعة وتناسب الألفاظ طولا وقصرا، حيث عدل عن بناء الفعل للمعلوم فلم يقل مثلا: تركهم أهلهم فناموا لضيق المقام عن إطالة الكلام بسبب المحافظة على السجع[٢٠١].

ويقع الحذف لضرب من الاختصار وثقة في ذكاء السامع فتكفية الإشارة، كما في قوله: " مطر ونبات، وأقوات وأرزاق، وآيات بعد آيات، وآباء وأمهات..." فحذف المبتدأ للعلم به، فالمخاطب بهذه الأخبار تكفيه الإشارة، وكأنه قال: انظروا إلى هذه الآيات، فهذا مطر ونبات، وهذه أرزاق وأقوات، إلخ، فحذف الركن الأول منها وأضمره، بينما اقتصر على الخبر الركن الثاني الثاني منها حتى تتم به الفائدة، والذي أقامه قس للتدليل على وحدانية الله والذي سوغ ذلك وحسنه أن الركن الأول اسم الإشارة هو عين المشار إليه.

وتقديم الفاعل على فعله من الأساليب الخطابية التي اعتمدها قس في إثارة ذهن السامع وحضه على التفكير والتأمل، بتسليط الضوء على محور الجملة الرئيس للاهتمام من خلال تقديمه الركن الثاني من جملته، من ذلك قوله: (.. ونجوم تغور، وأرض تمور..) فقدم الفاعل ههنا على فعله للإشارة إلى أهمية النظر فيما يحدث في هذه الآيات التي أسند إليها هذه الأفعال التي يعاينونها من نجوم تغيب وتغور بطلوع الصبح، وأرض تمور، واختصاصها بهذه الأفعال، وإسناد هذه الأفعال إلى فاعلها فيه تجوز من الحقيقة إلى المجاز، إذ لا يعقل للناظر إليها أن يسند إليها هذه الأفعال على سبيل الحقيقة، لأن هذه الأجرام لابد لها من محدث أحدث فيها الحركة، فالنجوم التي تغور من أغارها؟، والأرض التي تمور وتضطرب من الذي أحدث فيها هذه الحركة؟، فهذا الإسناد المجازي يثير في العقل هذه التساؤلات، ويزرع فيهم حب التأمل والنظر والبحث ليصلوا إلى حقيقة أن هذه العوالم الكونية في السماء والأرض وراءها قوة جديرة بأن تفرد بالتوحيد والعبادة. قال ابن درستويه: "ونجوم تمور يعني بها تجول وتسبح وتتحرك في فضاء السماء، وعزا إليها الفعل ليدل به أن لها مصرفا

[٢٠١] الدسوقي، حاشية الدسوقي على مختصر المعاني،/ ٤٧٨.

(ISSN: 2536- 9555)

ومدبرا، فلولاها لما مارت النجوم، وكذلك بحار لا تغور، أي لا تنقص ولا يذهب ماؤها"[٢٠٢]، وعبر بالفعل المضارع (تغور، وتمور) ليدل به على تجدد حدوث ذلك واستمرار وقوعه[٢٠٣]، ولتصور هذه الحالة واستحضارها[٢٠٤]، فمن شأن هذه البحور وحالتها الدائمة المستمرة أنها لا تغور، وكذا النجوم فإنها في اضطراب دائم مستمر.

وعلى هذا النحو أيضا قوله: (مهاد موضوع وسقف مرفوع) قد عاد بالدلالة بالسماء والأرض على وجود الخالق، وطالما أن هذا المهاد موضوع فلابد له من واضع، وعنى بالمهاد الأرض، ووصف سقف السماء بالمرفوع ليدل به على أنه لابد له من رافع[٢٠٥].

وفي قوله: "إن في السماء لخبرا وإن في الأرض لعبرا" استشهاد بالمحسوس المادي على الغائب المستور، ففي الأرض وما يحيط بها من من آيات ودلائل مادية عبرة على خبر السماء، فالشاهد منها يدل على ما غاب من خبر السماء، وإيثار لفظ (العبرة) في خطاب قومه ودعوتهم مناسب لحال هؤلاء القوم وحثهم على النظر والفكر حتى يعبروا من حال الشرك والوثنية إلى حال الإيمان والتوحيد، فالعبرة اسم للاعتبار، وهو أن تعرف ما بطن بما ظهر، والخروج من الجهل إلى العلم، ومن الشك إلى اليقين، وهو مشتق من قولهم: عبرت الرؤيا وعبرت النهر؛ لأن الرؤيا فيها لبس وتفسيرها يخرجها إلى البيان، وكذلك عابر النهر والبحر يخرج من المخافة إلى الأمن[٢٠٦].

---

[٢٠٢] ابن درستويه، خبر قس بن ساعدة،/ ١٧٢.

[٢٠٣] محمد بن الطيب الفاسي، شرح كفاية المتحفظ (تحرير الرواية في تقرير الكفاية)، تحقيق: علي حسين البواب، (الناشر: دار العلوم للطباعة والنشر، الرياض– المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٠٣هـ– ١٩٨٣م)،/ ٤٧؛ ابن عاشور، التحرير والتنوير، ٢٢/ ١٥.

[٢٠٤] محمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد، أبو زهرة، زهرة التفاسير، (دار النشر: دار الفكر العربي)، ١٠/ ٥٤٥٢؛ ابن عاشور، التحرير والتنوير، ٢٤/ ٢٦٨.

[٢٠٥] ابن درستويه، خبر قس بن ساعدة، ١٧١، ١٧٢.

[٢٠٦] ابن درستويه، خبر قس بن ساعدة،/ ١٧١؛ ابن فارس، مقاييس اللغة، (ع ب ر)، ٢٠٨/٤؛ الجوهري، الصحاح، (ع ب ر)، ٢/ ٧٣٢.

وقوله: "فَتِلْكَ عِظَامُهُمْ بَالِيَةٌ" الإشارة فيه منصرفة إلى معلوم غير مشاهد بالعين أثناء إلقاء خطابه عليهم في سوق عكاظ، لأن تحققه يقوم مقام حضوره معاينة، فإن مقابرهم يعاينونها ويمرون عليها، ويشاهدون موتاهم أجسامهم بالية، والإشارة إليهم بـ (تلك) جسمت المشار إليهم وأحضرتهم، فكأنهم عاينوهم وأبصروهم شاخصين أمامهم، وانتصاب بالية على الحال الذي صور هيئتهم وحالهم، وعامله ما في اسم الإشارة من معنى الفعل[٢٠٧]، أو على القطع، والتقدير فتلك عظامهم البالية، فلما حذف الألف واللام انتصب على الحال، ويجوز الرفع في بالية على خبر لتلك وعظامهم بدل من تلك، أو هي خبر لمبتدأ محذوف، تقديره هي بالية[٢٠٨]، والنصب عندي أولى؛ لأن فيه وصف لهيئتهم وبيان لحالهم، وعطف عليها قوله: "وَبُيُوتُهُمْ خَالِيَةٌ"، أي خلت من سكانها فلم يعمرها عامر من بعدهم، أو خوت من عمارتها وبنائها، فصارت بيوتهم أثرا بعد عين كأنها أنقاض، وكل يحتمله المعنى، الذي أكده أيضا بقوله:"عمرتها الذئاب العاوية"؛ لخرابها أو لخلوها من سكانها، وإنما كان قصد قس من الإشارة إلى ذلك أن ينبه قومه إلى أن ما تعاينوه من العظام البالية والبيوت الخالية إنما هو آية من الله قدَّر بقاءها على هذا النحو لتبقى عبرة وموعظة في الدنيا لمن أراد أن يعتبر بأحوال من سبقوهم في الدنيا.

ولقد تسائل الخطيب متعجبا عن هؤلاء الذين يرحلون عنا من دنيانا فلا يعودون تُرى هل أعجبتهم الإقامة في دار الموت فرفضوا العودة إلى الدنيا أم أنهم ذهبوا فتركوا فطواهم النسيان، ولم يعد أحد يذكرهم، أو يعرف عنهم شيئا؟!، فأين الأهل والأحباب من الآباء والأجداد، وأين المال والولد، وأين هؤلاء الذين جمعوا فكنزوا، وأين من بنوا الدور وزينوا القصور، بل أين هؤلاء الطغاة البغاة من الفراعنة الشداد، لقد كانوا أكثر منكم أموالا وأولادا وأطول أعمارا وبنيانا، أين هم؟! ما مصيرهم؟! لقد طحنهم الدهر بطوله وقوته، فجَثَم على صدورهم حتى أهلكهم وأفناهم، وشتت شملهم وفرق جمعهم،، فتلك عظامهم تحت الثرى بالية، وتلك بيوتهم خاوية، أضحت خرابا تسكنها الذئاب العاوية.

---

[٢٠٧] ابن عاشور، التحرير والتنوير، ١٩/ ٢٨٥.

[٢٠٨] القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ١٣/ ٢١٨.

(ISSN: 2536- 9555)

وهذا الاستفهامات من الخطيب تشعرك بمدى ألمه وحزنه على قومه مما هم عليه، ودهشته وتعجبه من عدم اعتبارهم من أحوال الأمم الغابرة، فضلا عما فيها من قرع آذانهم بهذا النمط المتكرر والمتنوع فى استخدام أدوات مختلفة للاستفهام (ما، همزة الاستفهام، أين، ألم)؛ وذلك ليوقظهم من غفلتهم، ويثير فيهم عوامل التفكير والتدبر، علَّهم يجدون إجابة له عن هذه الأسئلة الحائرة فيصلون بأنفسهم إلى الهدف والغاية التي يقصدها الخطيب كنتيجة حتمية لهذه الأسئلة، وهى توحيد الله والإقرار بربوبيته تعالى.

ويجري الخطيب بأسلوبه على هذا النمط الاستفهامى التعجبي "ما لى أرى الناس يذهبون ولا يعودون"، وينتقل إلى استفهامات متعددة تصب في الاتجاه نفسه وتدعم فكرته، ولا يدع المخاطبين من قومه عند هذا الحد من الحيرة والدهشة والتعجب بل ينتقل بهم في نهاية المطاف من خلال أسلوبه الاستفهامي التقريري "ألم يكونوا أكثر أموالا وأطول آجالا" إلى الاعتراف والإقرار، فهو أسلوب لا يترك للمخاطبين به فرصة للإنكار أو الرفض بعد ما ساق الذي ساقه، وطرح أسئلته كمسلمات بديهية، لا تحتاج فقط في الإجابة عنها إلا للنظر والفهم والاعتبار، فإذا كان ما يقصه قس عليهم في هذا الصدد حقيقة حفظها التاريخ عن هذه الأمم، ونقلها إليهم شاهدا عليهم، وهم على علم بما كانوا عليه من قوة ومنعة ومال وجاه وسلطان وغى وضلال، فأين هم هؤلاء؟ "ألم يكونوا أكثر أموالا، وأطول آجالا" فتهتف نفوسهم بالإجابة إقرارا واعترافا بلى قد كانوا كما قلت، وإذا كانوا كذلك فما مصيرهم ؟ أنتم أيضا تعرفونه لقد طحنهم الموت فأفناهم، وهاهي عظامهم تعاينونها بالية، وبيوتهم ترونها موحشة خالية. وقد ختمها بهذا الاستفهام التقريري (ألم يكونوا أكثر أموالا وأطول آجالا؟) ليدل به على تحقق وقوع المستفهم عنه، فلا مدخل لإنكاره من أحد، وقد دل على هذا المعني بهذا النظام التركيبي البديع من حيث إن الاستفهام إذا اشتمل على النفي أفاد التحقيق، كما في قوله تعالى: "أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَى"[٢٠٩].

[٢٠٩] سورة القيامة، الآية: ٤٠.

وفي هذه الجمل الاستفهامية تلحظ أن قسّا لجأ إلى التعميم عندما تسائل (أين من بنى وشيد، وزخرف ونجّد، وغرّه المال والولد! أين من بغى وطغى، وجمع فأوعى، وقال: أنا ربّكم الأعلى) فأردف الاستفهام اسم الموصول (من)، والذي يدل بوضعه على الاستغراق والعموم، من حيث كونه اسما مبهما، والأسماء المبهمة تقتضي العموم[٢١٠]، فأطلقه قس على كل من قام بالبناء والتشييد، والزخرفة والتنجيد، وكل من غره المال والولد، ومن قام بالبغي والطغيان؛ ليتناول بهذا الإطلاق والتعميم كل نوع، حتى يدخل فيه فعلهم هذه الأمور بأنفسهم، وذلك لزيادة التنبيه على فظاعة سوء اختيارهم من تركهم توحيد الله وعبادتهم للأوثان[٢١١]. وهو ما تراه أيضا في الجمل الاستفهامية الأخرى، في قوله: أين الآباء، والأجداد، وأين المريض والعوّاد، وأين الفراعنة الشّداد؟، يدخل فيها كل أب وجد ومريض وزائر، وكل فرعون تشبه بفرعون موسى، فليس المقصود بذلك واحدا بعينه، واستفيد ذلك من "أل" التي لتعريف الجنس، من جهة إفادتها العموم واستغراق المستفهم عنه واحدا واحدا[٢١٢]،.

وهذه التسؤلات المتعددة التي طرحها قس على جمهوره من قومه ومن غيرهم من الناس المجتمعين حوله تثير الكثير من الحيرة والتردد والشك في نفوسهم فيما عدوه من المسلمات الموروثة في عقائدهم الجاهلية، فما عدوه ثابتا مسلما به بهذه الأسئلة التي حركت فيهم نزعة الشك والتفكير في عدم اعتبارها من المسلمات التي لا تقبل الشك أو النقض، إذ بقس من خلال هذه الأسئلة يهز هذه المسلمات الإيمانية الفاسدة هزا عميقا، ويسلمهم إلى نتيجة حتمية مؤداها أن ما تعتقدونه أو تؤلهونه ما هي إلا أوثان لا تضر ولا تنفع، وأن للكون إلها سيحاسبكم بعد الموت الذي لا مفر منه.

---

[٢١٠] أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي، البحر المحيط في أصول الفقه، (الناشر: دار الكتبي، الطبعة: الأولى، ١٤١٤هـ- ١٩٩٤م)، ٤/ ١١٢؛ عبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن محمد الجويني، الملقب بإمام الحرمين، البرهان في أصول الفقه، تحقيق: صلاح بن عويضة، (الناشر: دار الكتب العلمية بيروت- لبنان، الطبعة: الطبعة الأولى ١٤١٨هـ- ١٩٩٧م)، ١/ ١٢٨.

[٢١١] السكاكي، مفتاح العلوم،/ ٤٢٠.

[٢١٢] أبو حيان، التذييل والتكميل في شرح كتاب التسهيل، ١٠/ ٨٦، ٨٨؛ الزركشي، البحر المحيط في أصول الفقه، ٤/ ١٤٥.

(ISSN: 2536- 9555)

وحذف الجواب ههنا يقع موقع التفخيم والتعظيم وإنما يحذف لقصد المبالغة؛ لأن السامع مع أقصى تخيله يذهب منه الذهن كل مذهب، ولو صرح بالجواب لوقف الذهن عند المصرح به، فلا يكون له ذلك الوقع[٢١٣]. ومن ثم فإن ترك الإجابة عن هذه الأسئلة لتحدث في نفس السامعين الحيرة والدهشة وتحرك فيهم ملكة التفكير فتذهب كل نفس مذهبها في الإجابة عنها، فضلا عن تجدد هذه الإجابات وتغيرها بتغير القارئ المطلع على هذه الخطبة، فناسب ترك الإجابة عنها حال المخاطبين في زمنه وحال من يأتي من بعدهم، ولو تكفل خطيبنا بنفسه بالإجابة عن كل ما طرحه من أسئلة لفوت الفرصة على جمهوره، ولأغلق عليهم بابا عظيما يلجون منه إلى فقه الألوهية الحقة التي يدعو إليها الخطيب.

ويرى بعض الشراح المحدثين[٢١٤] أن الاستفهامات المتوالية في نص الخطبة عند قس تكشف لنا عن مدى حيرته، وعن أنه لم يصل إلى معرفة قاطعة، أو إلى قرار من حيث اليقين والإيمان التام بما يعتقده.

وهذه من مبالغات التشريح في النص وتحميله أكثر مما يحتمل، فنذهب بالتأويل فيه إلى الخيال، والرأي الذي أميل إليه أن الخطيب قسا كان متوائما مع نفسه، واثقا بما يدعو إليه على يقين جازم بأنه على الحق الذي لا تشوبه شائبة، أو يختلج في نفسه الشك أو التهمة والريبة؛ إذ كيف يكون كذلك وقد تجشم الدعوة إلى الله ونادى في الأسواق يدعو إلى توحيد الله على الحنيفية السمحة، ولا شك أنه فعل ذلك عديدا، المرة تلو المرة، والسوق تلو السوق حتى عُدَّ من المصلحين الداعين إلى توحيد الله ونبذ الشرك والوثنية، ولأن هذا الأمر الذي قيل في تأويل نفسية الخطيب من خلال استفهاماته قد لا تتسق مع جو النص وما يحويه من أساليب قاطعة ترفض هذا

---

[٢١٣] أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي، البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، (الناشر: دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي وشركائه، الطبعة: الأولى، ١٣٧٦هـ- ١٩٥٧م)، ٣/ ١٨٣؛ فاضل صالح السامرائي، معاني النحو، (الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع- الأردن، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ- ٢٠٠٠م)، ٤/ ١٢٤.

[٢١٤] حسني عبدالجليل يوسف، الأدب الجاهلي قضايا وفنون ونصوص، (الناشر: مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الأولى: ١٤٢١هـ- ٢٠٠١م)، ٤٩٦.

التأويل فإننا نقول بأن الخطيب قد تأمل في الكون وما فيه من أدلة مادية تدل على وجود الله ولم يكن تأمله هذا لنفسه بقدر ما كان لقومه بغرض تبصيرهم وتحريك ملكة التفكير والتأمل فيهم؛ ليصلوا إلى ما وصل إليه، ناهيك عن قسمه القطعي الأكيد، الذي ينبع من إيمانه الجازم بالله (أقسم قس بالله قسما لا حانثًا فيه ولا آثمًا) وتبشيره بنبي آخر الزمان صلى الله عليه وسلم، ودين جديد غير الدين الذي هم عليه.

ثم انظر إلى خارج النص ورواية النبي صلى الله عليه وسلم للخطبة يحيلك ذلك إلى حقيقة إيمان قس من أنه على العكس من ذلك تماما، فقد وصل إلى أعلى درجات الإيمان واليقين والمعرفة، وإلا لما روى خطبته النبي عليه السلام، ولما أعجب بكلامه وبدعوة قومه إلى الإيمان بالله، إلى درجة وصلت إلى حد التأكيد الجازم منه صلى الله عليه وسلم وقسمه الشريف على ذلك، حين قال تعقيبا على كلام قس: "وَالَّذِي بَعَثَنِي بِالْحَقِّ لَقَدْ آمَنَ قُسٌّ بِالْبَعْثِ"(٢١٥).

إذن فلا حيرة أو شك اعتراه، وإنما كان غرضه من تلك الاستفهامات المتوالية أن تقرع آذانهم بمضامينها فتوقظ في نفوسهم ملكة البحث والتفكير حتى يصلوا إلى ما وصل إليه قس، ناهيك عما فيها من تنبيه للسامعين ووجذبهم إليه في تشوق وتلهف علهم يجدون عند قس جوابا عن هذه الأسئلة التي طرحها عليهم، بالإضافة إلى أن هذه الاستفهامات توحي بتحد للمخاطبين بها، وإظهار عجزهم عن الإجابة عنها، وإن كان ثمة حيرة أو تردد فهي عند قومه لا عنده، نتيجة لما أثارته هذه الأسئلة في نفوسهم من شكوك تتعلق بمعتقداتهم الوثنية الفاسدة، وحاجتهم إلى الوصول إلى جواب قاطع فيها.

هذا وقد ندر عند قس استعمال الصور الفنية البيانية من تشبيه أو مجاز أو كناية في خطاب قومه والتأثير فيهم، لأن الدعوة إلى الدين الجديد والدعوة إلى ترك عبادة الأوثان لا تحتاج إلى خيال أو مبالغة بل الخطيب في هذا الصدد في مسيس الحاجة إلى أن يعرض رؤيته ومعتقده بأسلوب عقلي واقعي من خلاله يستميل مخاطبيه إليه ويقنعهم بصدق دعوته، معتمدا فيه على ذكر الحقائق المادية المحسوسة والبراهين

(٢١٥) البيهقي، دلائل النبوة، ٢/ ١٠٤؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ٢/ ٢٩٥.

(ISSN: 2536- 9555)

العقلية المقنعة؛ لهذا السبب لم يلجأ قس إلى هذا اللون الخطابي إلا مرة واحدة في قوله: "طحنهم الدهر بكلكله ومزقهم بتطاوله" وفي رواية "طحنهم الثرى"، حيث شبه الدهر في شدته وقوة تأثيره بجمل ضخم جثم عليهم بكلكله أي بصدره فطحنهم، وذلك على سبيل الاستعارة المكنية، كما شبه الناس بحبوب تطحن، وعطف (مزقهم بتطاوله) على طحنهم الدهر، فشبه الدهر بحيوان مفترس له أنياب مزقهم بها، بتطاوله وتعاقبه عليهم على مر الأزمان، وشبه الناس بفريسة مزقها هذا الحيوان المفترس، وجمال هذه الصورة الفنية ينبع من أنها جسمت المعنى ووضحته بإبرازه في صورة مادية محسوسة، كشفت لنا عن بشاعة الدهر وقسوته، وتكرار الاستعارة المكنية بنفس مضمون ومعنى الاستعارة الأولى أفاد تأكيد فكرة الخطيب عن الدهر وقسوته، ناهيك عما تبثه هذه الصورة الفنية في نفوس السامعين في مقام الترهيب والوعيد من خوف وفزع، حتى يقبلوا على الخطيب ويتعظوا بما يقول.

المطلب الثالث

الجرس الصوتي الموسيقى وصلته بالمعنى

الجرس الصوتي الموسيقى وصلته بالمعنى:

هذا الجرس الموسيقي تلحظه في جميع جمل خطبة قس، وكأنك أمام مقطوعة شعرية بنيت على الوزن والبحر والقافية، وينبع هذا النغم الموسيقي من اختيار الكلمات المناسبة تركيبيا مع أخواتها المجاورات في البناء الصرفي والفواصل التي هي في النثر مثل القافية في الشعر[٢١٦]، فالبناء الصرفي تجده واضحا في الكلمات التي تم انتقاؤها مع ما تحمله من تضاد وتقابل وتجانس مع أختها، كما في اجتمعوا واسمعوا وعوا، فاختار الفعل وعوا معطوفا على ما قبله ليتجانس موسيقيا مع المقطع الأخير من اجتمعوا واسمعوا، ولو قال: أنصتوا أو أدركوا لفات هذا الجرس الموسيقي الذي يوقظ النفس وينبه السامع لما يلقى من وعظ ونصح.

---

[٢١٦] الزركشي، البرهان في علوم القرآن،، ١/ ٥٣؛ أحمد البدوي، من بلاغة القرآن، (الناشر: نهضه مصر– القاهرة، عام النشر: ٢٠٠٥م)،/ ٧٤؛ عبد السلام أحمد الراغب، وظيفة الصورة الفنية في القرآن، (الناشر: فصلت للدراسات والترجمة والنشر– حلب، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ– ٢٠٠١م)، ٣٩٤.

أو يختم المقطع الأخير من الكلمة بحرف من حروف المد واللين (الألف والواو والياء) ليتمكن من التطريب ومد الصوت فيحدث النغم الموسيقي كأنه يترنم أو يحدو، وكل ذلك فيه تشويق وتهييج للنفس وإيقاظ للغافلين واظهار التفجع وبيان لمدى حزنه عليهم، كما في قوله: (إن في السماء لخبرا وإن في الأرض لعبرا)، وقوله: (أرضوا بالمقام فأقاموا أم تركوا هناك فناموا)، وقوله: (أقسم قس قسما لا حانثا فيه ولا آثما) وكما في قوله أيضا: (أين من بغى وطغى. وجمع فأوعى. وقال أنا ربكم الأعلى. ألم يكونوا أكثر منكم أموالاً. وأطول منكم آجالاً)، فنبرة الوله والحزن تبدو واضحة من الاستفهام ومد الصوت بحرف المد وتطريبه كأنه فجع من حالهم ومن مصيرهم الذي سيصيرون إليه إن ظلوا على وثنيتهم فنادى عليهم محذرا إياهم يا معشر إياد أو يا بني إياد أين من بغى وطغى، وأين فرعون بما جمعه، أين الذي قال أنا ربكم الأعلى. والحكمة من ختم كلمة المقطع من السجعة بحروف المد واللين وشيوعها في خطبته التمكن من التطريب[٢١٧]، ومد الصوت، يدلك على ذلك أن السجعة في النثر كالقافية في الشعر، فهي تصور المقطع الي يتنتهي به الفقرة كالقافية، ويبقى وزنها مرددا بين فقراتها، مع الاعتدال في مقاطع الكلام[٢١٨]، ومعلوم أن العرب أذا أرادوا أن يترنموا إنشادا في الشعر فإنهم يلحقون الألف والياء والواو ما ينون وما لا ينون، لأنهم أرادوا مد الصوت[٢١٩]، **وذلك كقولهم لامرئ القيس (من الطويل)**

قِفاَ نَبكِ مِن ذِكْرَى حبيبٍ ومَنْزِلي

وقالوا في النصب ليزيد بن الطثرية: (من الطويل)

فَبتنـاَ تَحِيـدُ الـوحشُ عنّـا كأننـا ** قتـيلان لـم يَعلـمْ لنـا النـاسُ مَصْـرعَا

وقالوا في الرفع– للأعشى: (من الطويل)

---

[٢١٧] الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ١/ ٦٨؛ السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ٣/٣٥٩.

[٢١٨] الشايب، الأسلوب،/ ٦٦.

[٢١٩] سيبويه، الكتاب، ٤/ ٢٠٤؛ أبو سعيد السيرافي الحسن بن عبد الله بن المرزبان، شرح كتاب سيبويه، تحقيق: أحمد مهدلي، وآخر، (الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٨م)، ٥/ ٧٥؛ الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ١/ ٦٨؛ السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ٣/ ٣٥٩.

(ISSN: 2536- 9555)

هُرَيْرَةَ ودِّعْهَا وإنْ لامَ لائمُو

هذا ما ينون فيه؛ وما لا ينون فيه قولهم– لجرير: (من الوافر)

أَقِلّي اللوْمَ عاذِلَ والعِتابا[٢٢٠]

فلما كان موضوع الشعر للغناء والترنم احتاجوا إذا ترنموا إلى الحروف التي يمد فيها الصوت وهي الألف والواو والياء، وهذه الحروف مأخوذة من الحركات، فجعلوا ما كان مفتوحا من الحروف فتتبع فتحته الألف، وما كان مضمونا تتبع ضمته الواو، وما كان مكسورا تتبع كسرته الياء لامتداد الصوت في هذه الحروف[٢٢١].

ومن هذا النحو أيضا ما نراه في استخدام قس أسلوب النداء في حشو الخطبة (يا معشر إياد) مع أنه ينادي على قومه الذين هم أقرب الناس إليه، وهم من حوله يستمعون إليه ليعبر بمد صوته بأداة النداء (يا) عن حزنه وخوفه على قومه وعلى خشيته من المصير الذي سيؤولون إليه كما يعبر به أيضا عن مدى تلهفه لاستجابتهم وحرصه على قبولهم دعوته[٢٢٢].

ولأن الغرض عند الخطيب هو إيصال موعظته لأكبر قدر ممكن من جمهور السامعين في سوق عكاظ لجأ إلى حروف المد ليتمكن من تمطيط صوته ومده، فصدر خطبته بحرف المد في النداء (يا)، الموضوعة للبعيد وكررها في حشو خطبته، فضلا عن ما في صورة النداء للبعيد من بيان لاعتناء قس بالمخاطبين، وحرصه على وقوع النداء لهم بإسماعهم، وتحققه بطلب إقبالهم؛ وذلك لما في هذه الصيغة من مد الصوت بألف المد[٢٢٣]. قال ابن يعيش: "إن الغرض بالنداء التصويتُ بالمنادى ليُقْبِلَ. والغرضُ من حروف النداء امتدادُ الصوت وتنبيهُ المدعوّ"[٢٢٤]، وفي التنبيه بيان حاجة الداعي لإقبال المدعو إليه بما يطلبه، وخصت ألف المد دون اختيها ياء المد وواو، لأن المد فيها أمكن من أختيها[٢٢٥].

---

[٢٢٠] الكتاب، ٤/ ٢٠٥؛ السيرافي، شرح كتاب سيبويه، ٥/ ٧٨؛ ابن يعيش، شرح المفصل، ٥/٢٢٨؛ الرضي، شرح شافية ابن الحاجب، ٤/ ٢٤٣.

[٢٢١] السيرافي، شرح كتاب سيبويه، ٥/ ٧٨.

[٢٢٢] حنبكة البلاغة العربية، ١/ ٢٤٢.

[٢٢٣] محمد بن عرفة الدسوقي، حاشية الدسوقي على مختصر المعاني لسعد الدين التفتازاني،/٣٠٤.

[٢٢٤] ابن يعيش، شرح المفصل، ١/ ٣٦١.

[٢٢٥] ابن يعيش، شرح المفصل، ١/ ٣٥٨، ٥/ ٥٣.

كما لجأ إلى حرف المد الواو في (اجتمعوا واسمعوا وعوا)، فساعد ذلك على امتداد نفسه بالصوت مما ناسب ذلك مع مقدمة خطبته، التي تآلفت صوتيا مع المعاني التي قصدها الخطيب، فكل نداء يناسبه اجتماع وكل اجتماع يناسبه سماع وكل سماع يناسبه وعي وإدراك، وقد تأتي لخطيب عكاظ ذلك من خلال ترتيب هذه الأفعال عقيب حرف النداء الذي اتصل بمقطع المنادى عليهم بني إياد، واو الجماعة العائد إليهم والمتصل بالأفعال الثلاثة، ناهيك عن المد بالياء والألف في قوله: (بني إياد) كل ذلك أكسب مفتتح الخطبة ومقدمتها موسيقية وامتدادا بالصوت جذبت انتباه السامعين وأيقظت عقولهم لتلقي ما يسمعونه بوعي وإدراك لخطورة وأهمية ما يدعوهم إليه.

وهذا الجرس الموسيقي الذي يأخذ بالأسماع فتصغى وبالأفئدة فتميل تلمسه واضحا من براعة الخطيب في توظيف أساليب البديع بمهارة مع قصر الجمل وبساطة تركيبها حتى تتناسب مع إيقاعها الموسيقي، ولعلك تلحظ ذلك فتأنس بما أنس به قس مع معشره حين ناداهم "اسمعو وعوا من عاش مات ومن مات فات وكل ما هو آت آت" فتجد أن مقطع "عوا" في الفعلين قارب بينهما وربط بين الفعلين في الصيغة والدلالة، فلا ينفك أحدهما عن الآخر كما لا ينفك الفهم والإدراك عن الإصغاء وحسن الاستماع، ثم إنك لتلحظ التجنيس والمقابلة والسجع فيها وكلها عذبة غير متكلفة ولا ممجوجة فهى تساعدك ليس على حفظ نصوصها وعدم نسيانها فحسب بل تساعدك على التجاوب مع هذا الإيقاع الموسيقي المتناغم الآخاذ بمضامينه الحسية من مدٍّ بالألف تفجعا وحسرة إلى تنفيس وهمس بالتاء دلالة على ضعف من ماتوا وولّه وحزن من عاشوا أمام جبروت الموت الذي لا يرحم صغيرا أو شيخا كبيرا، وتكرار ذلك خمس مرات "مات، مات، فات، آت، آت" وقرعها هكذا لمسامعك ووجدانك تحيلك قهرا أو طوعا إلى الاعتراف بما سيؤول إليه مصيرك، إنه الموت لا شك، وكل فاصلة تتلو أختها في جمل قصيرة لا يزال صداها يتردد في جنبات نفسك ورجعها يمور ويضطرب بحنايا روحك ووجدانك، ثم ارجع النظر كرة إلى هذا الإيقاع القصير السريع إنه يحاكى إيقاع الحياة وسرعتها، فلا شئ أسرع من الموت وأخطر منه على الأحياء.

(ISSN: 2536- 9555)

ولعلك تلحظ أن في تكرار السجعة بين أكثر من جملتين على ما فيها من ناحية موسيقية تطرب لها الأذن وتجذب إليها السامع فإنها ترتبط دلاليا بالجملة التي سيقت من أجلها من حيث إنها تؤدي إلى تمكين المعنى في نفس المخاطب وتقويته، كما في التكرار الذي تجده في (من عاش مات ومن مات فات وكل ما هو آت آت) ولطيفة الفاصلة الثانية أنها جاءت تالية لقوله في الأولى (مات) فناسب بينها وبين مات في المعنى لما بينهما من ترابط معنوي فمن عاش حتما سيموت ومن مات فات ذكره ونسي أمره، فضلا عما في الجملة الثانية من ارتباط مترتب على الأولى فانتقل معنى الجملة الأولى إلى الثانية من عاش مات وعطف الثانية التي في معنى جزء الأولى ومن مات فات فذكر في الأولي الموت وربط الثانية بها من خلال اسم الموصول المتضمن معنى الشرط ومن مات فات والفوات أو النسيان نتيجة طبيعية مترتبة على الموت.

وعدل عن الإتيان بالفعل المضارع (يأتي أو سيأتي) إلى اسم الفاعل (آت) مراعاة للفواصل والأسجاع بين هذه الجمل والحفاظ عليها، وفيها تظهر براعة الكلام؛ إذ يكون فيه إيفاء بحق الفاصلة مع السلامة من التكلف كما تظهر براعة الخطيب في توفيته بحق الفاصلة، إذ سلم ذلك من التكلف، ناهيك عن وفائه للسامع المنتظر المتشوق مجئ هذه السجعة الموائمة مع سابقتها المؤدية للمعنى بحقه بلا إخلال أو نقص فيه أو في اللفظ، ناهيك عما في اسم الفاعل من مد بالصوت بخلاف الفعل[٢٢٦]، زد على ذلك أنه آثر التعبير باسم الفاعل ليدل به على دوام الفعل واستمراره مع تجدده وحدوثه، وأردفه بذكر الخلق (عاش)، والموت (مات) فمن حكم الله تعالى له بالمجئ إلى الحياة بالخلق والإيجاد حتما لابد أنه سيأتي[٢٢٧]، وحتما سيذهب بالموت.

وتلحظ هذا العدول في قوله: (ليل داج) وفي رواية فيها زيادة (ليل داج ونهار ساج)، بنى الجملة لاسم الفاعل عدولا عن الجملة الفعلية إلى الإسمية، مراعاة لهذا الجانب الموسيقي المتناغم بين الفواصل، وليدل بصنيعه هذا على دوام هاتين

[٢٢٦] ابن عاشور، التحرير والتنوير، ٩/ ٢١٩؛ ٧/ ٤٠٢.
[٢٢٧] ابن درستويه، خبر قس بن ساعدة،/ ١٧١.

الصفتين لليل والنهار، وثبوتهما لهما ما أقبل الليل وطلع النهار، فضلا عما في اسم الفاعل من معنى الفعل المضارع، فالتجدد والحدوث المستفاد من الفعل تجده ههنا أيضا في بناء اسم الفاعل في الجملة، فالليل والنهار صفتهما متجدتان وحدوثهما دائم مستمر.

والبناء الصرفي للجمل عند قس لوحظ فيه الانسجام الصوتي القائم على تكرار التفعيلة، أى الوزن الصرفي في كل سجعة، أو ما كان قريبا منها في وزنها الصرفي؛ ليتولد منها النغم الموسيقي الرتيب الذي يصب في أذن السامع طاقة أيجابية تهز مشاعره وتحركه نحو الخطيب والاستجابة إليه، تجد ذلك جليا بين كل جملتين فأكثر بسجعها، فعلى سبيل المثال: (فَعَل): من عاش مات/ ومن مات فات، أين من بغى/ وطغى (يفعلون) يذهبون/ يرجعون، (فعلوا): قاموا/ ناموا، (الفُعّال): العواد (فِعال): رتاج، شتات، إياد، شداد، (فَعَّل) شيد/ نجد. (أفعال): أرزاق/ أقوات، أحياء/ أموات، أبراج/ أمواج، الآباء والأجداد، أموالا/ آجالا.(أفعاله): أوانه (فَعْله): حينه. (فاعٍ): آت/ آت، داج/ ساج. (فاعلة): الخالية/ الماضية، بالية/ خاوية/ العاوية. (أفعل): أوعى/ الأعلى. (مفعول): معبود/ مولود.

وكما تلاحظ أن مد الصوت وتمكينه حتى يصل إلى الجمهور لم يقتصر على أواخر الكلمات أو الفواصل بل لجأ إليه الخطيب قي ثنايا بنية الكلمات للتتناسب مع بعضها البعض في البنية الصرفية فتحدث الجرس الموسيقي المطلوب مع الفواصل أو أواخر الكلمات فضلا عن أن في ذلك تقوية لصوته وتمكينا له ليصل إلى جمهور السامعين فيبدو مجلجلا ورنانا قويا صادعا بالحق، لذلك تجد أن المدود هذه في متن الخطبة من أوله إلى آخره، كالتي ضربناها في مفتتح الخطبة، وكالمدود داخل الكلمات في البنية الصرفية في الأمثلة السابقة، مثل: تمور، تغور أبراج أمواج رتاج، يذهبون، يرجعون، العواد، الشداد، وغيرها.

ومن هذا النحو قوله: (طوبى لمن آمن به فهداه وويل لمن خالفه وعصاه)، وطوبى أصلها: طيبى، من الطيب، فحولت الياء إلى الواو؛ لانضمام الطاء قبلها[٢٢٨]، والمد بالواو في وسطها والألف المقصورة في آخراها ساعد على امتداد

[٢٢٨] السيرافي، شرح كتاب سيبويه، ١٥/ ٤٨٣.

(ISSN: 2536- 9555)

الصوت باللفظ وتفخيم وتعظيم ما يدل عليه من معنى، وهو بامتداده هذا مناسب مع ما جانسه من مدود في السجعتين التي أوثر فيها المد بالألف في (هداه/ عصاه).

ولعلك تلحظ هنا أن الجمال الموسيقي لا يتولد من الفواصل المسجوعة فحسب بل أيضا من تساوي هذه الجمل النثرية من حيث الطول والقصر، وتوافقها في الأرداف أعني حرف المد الذي قبل الحرف الأخير من الفاصلة[٢٢٩]، والذي بنيت عليه السجعة، فانظر على سبيل المثال إلى هذا التساوي في طول الجمل كأنه يشبه البحر في الشعر (من عاش مات ومن مات فات)، فالجملة الثانية لا تزيد عن الجملة الأولى من حيث عدد الحروف إلا بحرف العطف، وانظر أيضا إلى قوله: (مطر ونبات، أرزاق وأقوات، آباء وأمهات، وأحياء وأموات) (سماء ذات أبراج، وأرض ذات رتاج، وبحار ذات أمواج)، (أين الآباء والأجداد، وأين المريض والعواد وأين الفراعنة الشداد)، وغير ذلك كثير في جمل الخطبة تلحظ فيه هذا التساوي والتماثل بين كلمات وحروف الفواصل ناهيك عن بنائها الصرفي الواحد أو القريب، فكل جملتين مسجوعتين من كلامه لا تطول أو تقصر عن أختها كأنك أمام تفعيلات شعرية في بحر عروضي. فالفواصل تنقسم إلى ما تماثلت حروفه في المقاطع، وهذا إنما يكون في السجع من منثور كلام العرب، وإلى ما تقاربت حروفه في المقاطع ولم تتماثل، وهذا لا يكون سجعا، ولا يخلو كل واحد من هذين القسمين أعني المتماثل والمتقارب من أن يأتي طوعا سهلا تابعا للمعاني أو مُتكلَّفا يتبعه المعنى[٢٣٠].

وأما عن التوافق الردفي في الفواصل فإنما يبدو جليا كأنك أمام مقطوعة شعرية تتوافق أردافها على حرف من حروف المد واللين لتحقق هذا النغم الموسيقي المطلوب مع السجعة أي الفاصلة أو قل الروي والقافية إن شئت، فهذه السجعات فواصل ومقاطع الكلام، وذلك أنّهم قد يطلبون منها التماثل كما يُطلَب في القوافي، والقوافي

---

[٢٢٩] بدر الدين الدماميني، العيون الفاخرة الغامزة على خبايا الرامزة، (الناشر: المطبعة الثمانية– مصر، ١٣٠٣هـ)،/ ٩٦؛ التنوخي، القاضي أبو يعلي عبد الباقي بن أبي الحصين عبد الله بن المحسن، القوافي، تحقيق: عمر الأسعد، وآخر، (الناشر: دار الإرشاد، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى: ١٣٨٩هـ- ١٩٧٠م)،/ ٨٨.

[٢٣٠] الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ١/ ٧٢.

يُشترط فيها ذلك، ولذلك سُمّيت قافية، مأخوذ من قولهم: "قَفَوْت"، أي: تَبِعْت، كأن أواخر الأبيات يتبع بعضها بعضًا، فتجري على منهاج واحد[٢٣١]. وهذه الروادف عند قس لا تنفك عن حروف المد واللين الثلاثة (الألف والواو والياء) وكأن قسا عمد إليها ليحقق أمرين في غاية الأهمية عند خطيبنا يتمثلان في تحقيق التطريب الموسيقي صابا في أذن السامع فيجذبه جذبا ليس لمجرد السماع فحسب بل إلى نشوة السماع ولذة الإصغاء وعذوبة التنغيم، فيقبل على الخطيب بمجامع حسه وسمعه فلا يغفل عنه ولا يلهو بشئ ينأى به عن السماع والوعي إذ لا شئ عنده ألذ من السماع وأمتع من الإصغاء.

أما الأمر الآخر الذي يسعى إلى تحقيقه من جهة هذه المدود المتناسبة مع تساوي الفواصل أي السجعات فله علاقة بالناحية الأدائية عند الخطيب، فهو من خلال هذه الروادف المدية يريح نَفَسَه وصوته من توالي الحروف الصامتة وتكرارها في الجملة، وهو ما يساعده على الدوام في الإلقاء بلا عنت أو مشقة، ناهيك عن إيصال صوته إلى أبعد ما يكون إلى السامعين، لأنه بعد المد بالصوت بالألف أو الواو او الياء يستريح بالوقوف على آخر الفاصلة، أي السجعة، ثم يبدأ بإنشاء جملة أخرى، وهكذا حتى ينتهي من تحقيق غرضه في موضوع الخطبة، وتمثل أنت موقف قس بين قومه وهو يقول: "من عاش ماتْ، ومن مات فاتْ، وكل ما هو آت آتْ، مطر ونباتْ، وأرزاق وأقواتْ، وآباء وأمهاتْ، وأحياء وأمواتْ، وجمع وشتاتْ) فتقف على التاء من الفاصلة بعد مد صوتك بالألف، وكذا (وسماء ذات أبراجْ، وأرض ذات رتاجْ، وبحار ذات أمواجْ، ما لي أرى الناس يذهبون فلا يرجعونْ!)، أو قوله: "يا معشر إياذْ، أين الآباء والأجدادْ، وأين المريض والعوّادْ، وأين الفراعنة الشّدادْ) فتطيل صوتك بمد حرف المد بما تشاءه من استطالة لامتداد نَفَسِك به ثم تولي المد الحرف الأخير من السجعة لتستريح وتقطع الصوت بالوقوف عليه. ويمكن أن نستنبط هذين الغرضين من قول الزركشي في الفواصل القرآنية: "وتقع الفاصلة عند الاستراحة في الخطاب لتحسينِ الكلام بها وهي الطريقة التي يباين القرآن بها سائر الكلام وتسمّى

[٢٣١] ابن يعيش، شرح المفصل، ٥/ ٢٢٨؛ الزركشي، البرهان، ١/ ٥٣، وما بعدها.

(ISSN: 2536- 9555)

فواصل لأنه ينفصل عندها الكلامان وذلك أن آخر الآية قد فصل بينها وبين ما بعدها ولم يسموها أسجاعا"[٢٣٢].

والأسجاع في منثور كلام العرب مبنية على الوقف، والذي يدلك على ذلك أن السجعة تقابلها الفاصلة في القرآن الكريم، ومبنى الفواصل في القرآن الكريم على الوقف، وإذا كانت الفواصل القرآنية يشيع فيها مقابلة المرفوع بالمجرور، وبالعكس[٢٣٣]، فإن الأسجاع كذلك؛ إذ كان مبناها أيضا على الوقف، والوقف غالبا بالسكون، فبناء آخر الكلمة من الجمل المسجوعة على الوقف بالسكون أمر لا غنى عنه لتحقيق العملية التطريبية للسامع والقائم على أساس من المحافظة على الإيقاع الموسيقي في الجمل المسجوعة والنغمات الإيقاعية المنتظمة فيها، حتى يظل السامع أو القارئ على صلة بما يلقى عليه وفي حالة تشوق وتوقع السجعة التالية وموقفها طولا وقصرا مع أختها التالية أو السابقة عليه، ولهذا السبب فإن الأسجاع المتقابلة تتوافق في حالة الوقف تحقيقا للتطريب الصوتي، بصرف النظر عن حالتها الإعرابية، والشاهد على ذلك كلام قس في خطبته، فقد قابل بين ما اختلفت حركته حالة الوصل، سواء أكانت حركته حركة إعراب أم بناء، فقال: (أَيْنَ مَنْ بَنَى وَشَيَّدَ، وَزَخْرَفَ وَنَجَّدَ، وَغَرَّهُ الْمَالُ وَالْوَلَدُ)، فقابل بين سجعة الولد المرفوعة رفعة إعراب، وسجعة شيد، ونجد المفتوحة فتحة بناء، ومن ذلك أيضا قوله: (كَلا: بَلْ هُوَ اللَّه الْوَاحِدُ الْمَعْبُودُ، ليس بوالدٍ ولا مولودٍ).

وكما يتضح من كلام قس السابق لا يشترط في الأسجاع الموافقة في الحركة الإعرابية، وذلك خلافا لما ذهب إليه بعضهم[٢٣٤] من اشتراط التوافق في الحركة إعرابا وبناء، وواقع الاستعمال ينقضه، فالذي لا شك فيه أن كلمة الأسجاعِ موضوعة على أن تكون ساكنة الأعجاز موقوفا عليها؛ لأن الغرض المجانسة بين القرائن والمزاوجة، ولا يتم ذلك إلا في حالة الوقف على آخر الكلمة، ولو وصلت لم يكن بد من إجراء كل القرائن على ما يقتضيه حكم الإعراب، فعطَّلت بذلك عمل الساجعِ

[٢٣٢] الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ١/ ٥٤؛ السيوطي، معترك الأقران، ١/ ٢٥.
[٢٣٣] الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ١/ ٦٩.
[٢٣٤] الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ١/ ٧٠.

وفَوَّت عليه غرضه[٢٣٥]. قال الدسوقي: "(والأسجاع مبنية على سكون الأعجاز)، أى أواخر فواصل القرائن إذ لا يتم التواطؤ والتزاوج فى جميع الصور إلا بالوقف والسكون (كقولهم: ما أبعد ما فاتْ وما أقرب ما هو آتْ) إذ لو لم يعتبر السكون لفات السجع؛ لأن التاء من فات مفتوح ومن آت منون مكسور"[٢٣٦]. ولحسن الانتهاء آخر الفقرة يجب أن تتوافر فيه نغمة ملائمة قد تتحقق بحروف الوصل أو الخروج أو الردف التي تجعل الوقف لينًا رشيقًا[٢٣٧].

ونص الخطبة في مجموعها تنتهي فواصلها بحرف من حروف المد غالبا، أو ما يشبه حروف المد من حروف الزيادة أو من غيرها، كالتاء فيما سبق من أمثلة أوالهاء أو غيرهما كما سيأتي، فمن هذه الفواصل تنتهي بالحرف الصامت (التاء) قبلها مد بالألف (مات، فات، آت، نبات، أقوات، أمهات، أموات شتات)، والتاء تشبه حروف المد واللين؛ لأنها حرف مهموس، فناسب همسها لين حروف المد واللين، ومخرجها من رأس اللسان وأصول الثنايا، وهو قريب من مخرج النون[٢٣٨]. وقد صاحبت حرف المد الألف في كل الفواصل الواردة عند قس في خطبته، وكما تراها في مفرداتها السابقة والوقف عليها لا يبعد المتكلم عن حرف المد قبله لما بينهما من تناسب وتشابه، والتاء كثيرة الدوران مع حروف المد، فقد أبدلت من الواو في تاله وتراث وتجاه وتخمة وتكأة، فهي في كل بدل من الواو، والأصل: والله ووراث والوجه ووكأة ووخمة، كما أبدلوها من الياء في ثنتين، فلما تصرفت هذا التصرف وأبدلت هذا الإبدال أتت مع حروف المد[٢٣٩].

---

[٢٣٥] الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ١/ ٧١.

[٢٣٦] الدسوقي، حاشية الدسوقي على مختصر المعاني للتفتزاني، ٤/ ١٩٧.

[٢٣٧] الشايب، الأسلوب،/ ٦٧.

[٢٣٨] ابن يعيش، شرح المفصل، ٥/ ٣١٦؛ السيرافي، شرح كتاب سيبويه، ٥/ ٣٩١؛ ابن جني، سر صناعة الإعراب، (الناشر: دار الكتب العلمية بيروت- لبنان، الطبعة: الأولي ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م)، ١/ ٦٠.

[٢٣٩] ابن يعيش، شرح المفصل، ٥/ ٣١٦، سيبويه، الكتاب، ٤/ ٢٣٩؛ ابن جني، سرصناعة الإعراب، ١/ ١٥٥، وما بعدها، عبد الرحمن بن محمد بن عبيد الله الأنصاري، أبو البركات، كمال الدين

(ISSN: 2536- 9555)

وأما الفواصل التي تنتهي بحرف الدال فمنها: (يا معشر إياد، أين الآباء، والأجداد)، وكذا: العوّاد، والشّداد، وشيد، ونجّد، والولد) وتلاحظ هنا أن الذي ألجأ قسا إلى الإتيان بهذه الفواصل الدالية أن قسّا بنى هذه الفواصل على فاصلة النداء (يا معشر إياد) فأجرى الفواصل بعدها على حرف الدال مع وجود البديل اللفظي لبعضها لتتم له السجعة مع الوفاء بالمعنى، والدال: من مخرج التاء من بين طرف اللسان وأصول الثنايا، وهو صوت مجهور[٢٤٠]، تهتز معه الأوتار الصوتية في الحنجرة اهتزازات منتظمة، لذا هو أوضح في السمع من المهموس[٢٤١]، وهو أيضا حرف شديد منع الصوت أن يجري فيه[٢٤٢]، بمعنى أن تيار الهواء الخارج من الرئتين، يعوقه عائق يمنعه من المرور عند النطق به، ثم يزول هذا العائق بسرعة، وبهذا يندفع الهواء الخارج بانفجار شديد[٢٤٣]، ونظرا لشدته فقد ناسب فواصل هذه الجمل لما فيها أيضا من جهر بالصوت وارتفاع به لاتصاله بفاصلة النداء، فهي من جملة الأشياء التي نادى بها متسائلا قومه من بني إياد أين هؤلاء الذين مضوا من الأصناف التي قد عددهم، كما أن التاء والدال يقع الإبدال بينهما كثيرا؛ إذ لا يوجد بينهما من فرق إلا الهمس والجهر، وليس في واحد منها إطباق ولا استطالة ولا تكرير[٢٤٤]، فمجاورة سجعة الدال التاء لا يبتعد السامع عن موسيقية الفاصلة التي أحس بها فيما سبقها من سجعات ولا يستوحش الانتقال بينهما.

وأما الفواصل أو السجعات التي تنتهي بحرف الهاء فمنها (إنّ لله دينا هو أحبّ إليه من دينكم الذي أنتم عليه، ونبيّا قد حان حينه، وأظلّكم أوانه) وكذا الفواصل: (إبّانه، فهداه، وعصاه، كلكله، بتطاوله) والهاء حرف خفي مهموس، فناسب بهمسها

الأنباري، أسرار العربية، (الناشر: دار الأرقم بن أبي الأرقم، الطبعة: الأولى ١٤٢٠هـ– ١٩٩٩م)،/ ٤٧.

[٢٤٠] سيبويه، الكتاب، ٤/ ٤٣٤؛ ابن جني، سر صناعة الإعراب، ١/ ٧٥.

[٢٤١] رمضان عبد التواب، المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، (الناشر: مكتبة الخانجي بالقاهرة، الطبعة: الثالثة ١٤١٧هـ– ١٩٩٧م)،/ ٣٦.

[٢٤٢] سيبويه، الكتاب، ٤/ ٤٣٣، ٤٣٤؛ ابن جني، سرصناعة الإعراب، ١/ ٦٠، ٧٥.

[٢٤٣] رمضان عبدالتواب، المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي،/ ٣٣.

[٢٤٤] سيبويه، الكتاب، ٤/ ٤٦٠؛ ابن جني، سرصناعة الإعراب، ١/ ٧٥، وما بعدها.

وخفائها لين حروف المد واللين، وهي من مخرج الألف، وقد أبدلت من الواو في (يا هناه)، ومن الياء في (هذه)[٢٤٥]، كما تلحق لبيان الحركات وحروف اللين؛ لأن حروف اللين خفية، فتلحق لتوضيح الحرف وتبيينه، كما تلحق في الندبة ونحوها[٢٤٦]، وإنما لحقت في الندبة، لأن الموضع موضع تبيين وتصويت، فجمعوا بين الهاء والألف فألحقوا الهاء بها كما ألحقوها بالواو والياء، لما أرادوا أن يمدوا الصوت في النداء ألزموها الهاء في الوقف لذلك، فقالوا: يا غلاماه، وواغلاماه ووازيداه وواغلامهوه وواغلاميهيه[٢٤٧]. قال الأخفش: "وإنَّما أجروا الهاء مجرى الياء والواو والألف، لأنها حرفٌ خفيّ، ومخرجها من مخرج الألف، وتبين بها حركة ما قبلها في قولك: عليّه وأرمه وأغزه وعمّه. فإذا وصلت حذفتها"[٢٤٨]

وتبدل الهاء من تاء التأنيث المربوطة في الاسم المفرد في حالة الوقف عليها، من نجو: غرفة، وظلمة، طلحة[٢٤٩]، وبينة ورحمة من قوله تعالى: "فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ"[٢٥٠]، فيقال حال الوقف عليها: غرفهْ، ظلمهْ، طلحهْ، بيّنهْ، رحمهْ، بالهاء بدلا من التاء المربوطة[٢٥١]. قال الرضي: "وإنما قلبت هاء لأن في الهاء همسا ولیناً أكثر مما في التاء فهو بحال الوقف الذي هو موضع الاستراحة أولى"[٢٥٢]. فلما وجد فيها ما ذكر من تشابه بينها وبين حروف المد واللين وافقتها في

---

[٢٤٥] ابن يعيش، شرح المفصل، ٥/ ٣١٦؛ ابن جني، سر صناعة الإعراب، ١/ ٦٠، ٧٥، وما بعدها.

[٢٤٦] المبرد، المقتضب، ٢/ ١١٧؛ السيرافي، شرح كتاب سيبويه، ١٥/ ١١٥؛ ابن جني، سر صناعة الإعراب٢/ ٢١٤.

[٢٤٧] السيرافي، شرح كتاب سيبويه، ٥/ ٣٧.

[٢٤٨] أبو الحسن المجاشعي، المعروف بالأخفش الأوسط، القوافي، تحقيق: أحمد راتب النفاخ، (الناشر: دار الأمانة، الطبعة الأولى، ١٣٩٤هـ- ١٩٧٤م)،/ ١٩؛ التنوخي، القوافي،١١٢.

[٢٤٩] أبو حيان، ارتشاف الضرب من لسان العرب، تحقيق: رجب عثمان، (الناشر: مكتبة الخانجي بالقاهرة، الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ- ١٩٩٨م)، ١/ ٣٢٣.

[٢٥٠] سورة الأنعام، الآية: ١٥٧.

[٢٥١] عباس حسن، النحو الوافي، ٤/ ٧٦١.

[٢٥٢] الزمخشري، المفصل في صنعة الإعراب، تحقيق: علي بو ملحم، (الناشر: مكتبة الهلال- بيروت، الطبعة: الأولى)، ٤٧٩؛ محمد بن الحسن الرضي الإستراباذي، شرح شافية ابن الحاجب، تحقيق: محمد

(ISSN: 2536- 9555)

الفواصل السجعية عند قس، إذا لا يستوحش السامع الانتقال منها إلى حروف المد أو إليها.

ونظرا لهذا التقارب الصوتي بين التاء والهاء على النحو الذي مر فقد ساغ لقس أن يوالى السجعات الهائية السجعات التائية التي يوقف عليها بالهاء، فتجده يقول: (طحنهم الثرى بكلكله ومزقهم بتطاوله) ثم يأتي بعدها مباشرة بالفواصل التائية المبدلة هاء في الوقف، فيقول: (فتلك عظامهم بالية وبيتوهم خاوية، عمّرتها الذئاب العاوية)، وبالعكس أيضا نجد أن قسا يبدأ بالسجعة التائية ثم يردفها بالهائية في موضع آخر من خطبته، فيقول: (فطوبى لمن آمن به فهداه، وويل لمن خالفه وعصاه) ثم يردف هذه الفاصلة الهائية بالفاصلة التائية في قوله: (تبا لأرباب الغفلة من الأمم الخالية والقرون الماضية)، فالفواصل أو السجعات فيها مبنية على الوقف عليها بالهاء في كل سجعة، ومن ثم فلم ينتقل الخطيب من سجعة إلى أخرى مغايرة، ولم يقلق سمع جمهوره بذلك، بل لا نبالغ إن قلنا: إن السماع رتيب النطق، والنطق في حالة الوقف لم يلحقه أدنى تغيير، وكذا السامع لم ينتقل بحسه السمعي من سجعة إلى أخرى مغايرة، وإن أدرك أن المعنى تغير بتغير تركيب الجملة بفاصلتها المتوائمة مع أختها السابقة أو التالية عليها.

والراء من الحروف التي اعتمد عليها قس في بناء بعض السجعات في خطبته، فضلا عن قافية مقطوعته الشعرية التي بناها عليه، فنجده يقول: (إِنَّ فِي السَّمَاءِ لَخَبَرًا، وَإِنَّ فِي الأَرْضِ لَعِبَرًا)، والراء حرف مجهور، متوسط بين الشدة والرخاوة، مستفل منفتح[٢٥٣]، ومن حيث موقع سجعته فهو منصوب منون (لخبرا، لعبرا)، والوقف على المنصوب المنون بالألف[٢٥٤]، فتجري سجعته على المد بالألف

نور الحسن، وآخرين، (دار الكتب العلمية بيروت– لبنان، عام النشر: ١٣٩٥هـ– ١٩٧٥م)، ٢٨٨/٢، ٢٨٩.

[٢٥٣] الكتاب، ٤/ ٤٣٤؛ السيرافي، شرح كتاب سيبويه، ٥/ ٣٩١، وما بعدها، ابن جني، سر صناعة الإعراب، ١/ ٦٠، ٧٥؛ الصفاقسي، تنبيه الغافلين وإرشاد للجاهلين عما يقع لهم من الخطأ حال تلاوتهم لكتاب الله المبين، تحقيق: محمد النيفر، (الناشر: مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله)،/ ٣٦، ٥٩.

[٢٥٤] ابن جني، سر صناعة الإعراب،٢/ ١٤٠؛ ابن يعيش، شرح المفصل، ٥/ ٢٠٨؛ الصفاقسي، تنبيه الغافلين،/ ٣٦، ٥٤.

الموقوف عليه بديلا عن التنوين حال النصب، فيمتد الصوت بالألف كما يريد الخطيب إمعانا في قوة التبليغ، وأتبع قس هذه السجعة الرائية سجعة الجيم في قوله: (لَيْلٌ دَاجٍ، وَسَمَاءٌ ذَاتُ أَبْرَاجٍ، وَأَرْضٌ ذَاتُ رِتَاجٍ، وَبِحَارٌ ذَاتُ أَمْوَاجٍ)، والجيم حرف مجهور شديد مستفل منفتح[٢٥٥]، جاورت سجعته سجعة حرف الراء والذي يتفق معه في صفاته، إلا أن الراء متوسط بين الشدة والرخاوة، وهو بهذا التوسط يزداد قربا منه، والسجعات الجيمية كلها مسبوقة بحرف المد الألف، والتي نراها أيضا في الفواصل التائية والرائية، فتجري جميع هذه السجعات على هذا النسق الصوتي الممتد والمناسب للخطبة والمدى الصوتي لدى الخطيب.

والنون من الحروف التي انتهت بها بعض سجعات قس في خطبته، في قوله: "مَالِي أَرَى النَّاسَ يَذْهَبُونَ فَلا يَرْجِعُونَ"، وهذه السجعة النونية من الناحية التطريبية والصوتية تتوافق مع ما اشتملت عليه المقطع من مد بالواو وما احتوته الجمل السابقة من مدود داخلية في بنية المقطع من السجعة، أو ما ختمت به السجعة؛ لأن الغنة التي فيها تتعاقب حروف المد واللين، والعرب كانوا يستلذون الغنة في كلامهم[٢٥٦]، وهي أيضا مناسبة لما بعدها من مقاطع ختمت بالواو (أَرَضَوْا بِالْمُقَامِ فَأَقَامُوا، أَمْ تُرِكُوا هُنَاكَ فَنَامُوا) فهي قريبة من حروف المد واللين[٢٥٧]؛ فهي غنة مجهورة، مخرجها إذا كانت ساكنة من الأنف والخيشوم[٢٥٨].

والنون والواو في (يذهبون، يرجعون)، والميم والواو في (فأقاموا، فناموا) تلاهما من السجعات الميمية قول قس: (أَقْسَمَ قِسٌّ قَسَمًا لا حَانِثًا فِيهِ وَلا آثِمًا)، والوقف عليها بألف المد؛ لأن المقطع منها منصوب مختوم بالتنوين، فناسب الامتداد الصوتي فيها ما تقدم عليها من سجعات؛ إذ الميم تشبه واو المد؛ لأنهما من مخرج واحد، وهو الشفة، وهي مجهورة، فيها غنة تمتد إلى الخيشوم امتداد الألف في الحلق،

---

[٢٥٥] سيبويه، الكتاب، ٤٣٤، ٤٣٥؛ ابن جني، سر صناعة الإعراب، ١/ ٧٥.

[٢٥٦] ابن يعيش، شرح المفصل، ٥/ ١٥٧.

[٢٥٧] ابن يعيش، شرح المفصل، ٢/ ٣٤٧؛.

[٢٥٨] سيبويه، الكتاب، ٤/ ٤٣٢؛ ابن جني، سر صناعة الإعراب، ١/ ٦١؛ الرضي، شرح شافية ابن الحاجب، ٣/ ٢٦١.

(ISSN: 2536- 9555)

فضارعت بغنتها وهويها في الفم لين حروف المد واللين[٢٥٩]، وأيضا فإن الميم والنون غنة من الخيشوم، وهي تناسب النون واللام لكونهما مجهورتين، وبين الشدة والرخاوة[٢٦٠]؛ لذا أردف قس السجعات اللامية المنصوبة والمنتهية بألف مد حال الوقف لسجعة (الأعلى) للتتناسب في الامتداد الصوتي التطريبي مع الألف المقصورة فيها، فقال: (وَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى، أَلَمْ يَكُونُوا أَكْثَرَ مِنْكُمْ أَموالا وَأَطْوَلَ مِنْكُمْ آجَالا، وَأَبْعَدَ مِنْكُمْ آمالا).

ونخلص مما تقدم أن السجعات في جميع الجمل بنيت على الحرف الأخير من الكلمة الأخيرة المزدوجة مع اختها من الجملة التالية لها أو السابقة عليها للازدواج والائتلاف بينهما تحقيقا للتنغيم الموسيقي، وتوكيدا للكلام ومبالغة فيه، وتشويقا للسامع وتنبيها له إلى ما يلقى إليه، سواء أكان الحرف الأخير حرفا أصليا لام الكلمة أم كان حرفا زائدا، قال عبدالسلام الراغب: "هي– أي الفاصلة او السجعة– مناسبة للمعنى، تزيد في وضوحه وجلائه، وهي ملائمة للسياق، كما أنّها تحكم المعنى في نهاية السياق، وتقوّيه من خلال إيقاعها الموسيقى الخاص"[٢٦١]. وهنا نتسائل لماذا بنيت السجعة على الحرف الأخير من الكلمة فتكرر بين الأسجاع دون سائر حروف الكلمة الأخرى؟ وقد تكفل ابن جني بالإجابة عن هذا السؤال، فذكر أن السجعة تمثل المقطع الأخير من الكلمة وهو الأقوى، فتكررت لهذا السبب إذ كان العمل في المبالغة والتكرير إنما هو على المقطع لا على المبدأ، ولا المحشى ألا ترى أن العناية في الشعر إنما هي بالقوافي لأنها المقاطع وفي السجع كمثل ذلك. نعم، وآخر السجعة والقافية أشرف عندهم من أولها والعناية بها أمس والحشد عليها أوفى وأهم. وكذلك كلما تطرف الحرف في القافية ازدادوا عناية به ومحافظة على حكمه[٢٦٢].

---

[٢٥٩] ابن جني، سرصناعة الإعراب، ٢/ ٩٠؛ ابن يعيش، شرح المفصل، ٥/ ٣١٥؛ الصفاقسي، تنبيه الغافلين،/ ٧٧.

[٢٦٠] الرضي، شرح شافية ابن الحاجب، ٣/ ٢١٦، ٢٥٤؛ الصفاقسي، تنبيه الغافلين،/ ٧٥، ٧٧، ٧٩.

[٢٦١] عبدالسلام الراغب، وظيفة الصورة الفنية في القرآن،/ ٣٩٤.

[٢٦٢] ابن جني، الخصائص،١/ ٨٤، ٨٥؛ ابن سيده، المحكم، (ب ص ع)، ١/ ٤٥٦؛ ابن منظور، لسان العرب، (ب ص ع)، ٨/ ١٢.

المحسنات البديعية:

من السمات البارزة في النصوص الخطابية في العصر الجاهلي بصفة عامة، وعند قس في خطبته بصفة خاصة احتواؤها على المحسنات البديعية، وهي وسائل يعتمد عليها الخطيب أو الأديب في تزيين الألفاظ أو المعاني بعد استيفاء الكلام معناه، أي شرط البلاغة من مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته[٢٦٣]، فلا يتأتى هذا اللون في الأسلوب إلا بعد استيفاء المعنى بصورته البيانية، فيلجأ الأديب أو الخطيب إليه من أجل التأثير في نفس السامع أو المتلقي من خلال هذه الوسائل الجمالية التي تهتم بزينة الألفاظ والمعاني وتحسينهما، شريطة أن تكون غير متكلفة داخل النص، وألا يلح الأديب على استظهارها بل يتركها عفو الخاطر، بلا إفراط في استعمالها؛ لأن الإفراط فيها يكشف عن ضعف الأسلوب وعجز الأديب أو الخطيب عن الاسترسال في الكلام، فيقع أسير المحسنات التي تصير بمثابة قيود شكلية لا طائل منها، تأتي على حساب المعني.

وهذا من شأنه أن يجعل الأديب اللفظ تابعا للمعنى فيتخير من الألفاظ ما يناسب المعنى، فيحسن اللفظ والمعنى، بخلاف ما لو تكلف الألفاظ وبالغ في تحسينها على حساب المعنى فقدمها عليه، وشغف بإيراد المحسنات اللفظية التي صرف عنايته إليها، ولم يبال بسوق الألفاظ لغرض إفادة المعنى، فلا يحفل بخفاء دلالاتها ولا بركاكة معانيها[٢٦٤]، وقد أجمع العلماء على أن هذه المحسنات لا سيما اللفظية منها جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب[٢٦٥].

---

[٢٦٣] الخطيب القزويني، محمد بن عبد الرحمن بن عمر، أبو المعالي، الإيضاح في علوم البلاغة، تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي
الناشر: دار الجيل– بيروت، الطبعة: الثالثة)، ١/ ٤٨، ٥٠؛ الهاشمي، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع،/ ٤٢.

[٢٦٤] الهاشمي، جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب، ١/ ٢٩.

[٢٦٥] الهاشمي، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع،/ ٢٩٨.

(ISSN: 2536- 9555)

والبديع معناه: المحدث العجيب المخترع على غير مثال سابق، من قولهم: بدع الشئ وأبدعه: اخترعه لا على مثال[٢٦٦]، وبدع الشئ يبدعه بدعا وابتدعه: أنشأه وبدأه، والبديع والبدع: الشئ الذي يكون أولا[٢٦٧]. وهو عند البلاغيين: علم يعرف به الوجوه والمزايا التي تزيد الكلام حسنا وطلاوة وتكسوه رونقا بعد مطابقته لمقتضى الحال مع وضوح دلالته على المراد لفظا ومعنى[٢٦٨]. ومن أنواع البديع التي وردت عند قس ما يلي:

الجناس:

لون من ألوان المحسنات اللفظية، وهو تشابه لفظين في النطق واختلافهما في المعنى[٢٦٩]، أو هو تشابهما في اللفظ[٢٧٠]، وقيل: هو أن تكون الألفاظ متشابهة فى الأعجاز والأوزان وغير ذلك[٢٧١]. والجناس بأنواعه لا يحسن حتى يساعد اللفظ المعنى، ولا تستلذ إلا إذا يتساوى مطلعها مقطعها، ويوازى مصنوعها مطبوعها، مع مراعاة النظائر، وتمكن القرائن، فإذا أردت أن تستوفى أقسام المحاسن فأرسل المعاني على سجيتها، ودعها تطلب لأنفسها الألفاظ بلا تكلف منك ولا استكراه، فإنها إذا تركت وما تريد، لم تكتس إلا ما يليق بها[٢٧٢].

وهو نوعان: تام، وناقص، أما التام، وهو ما اتفق فيه اللفظان المتجانسان في أربعة أشياء، نوع الحروف، وعددها، وهيئآتها الحاصلة من الحركات والسكنات،

---

[٢٦٦] الجوهري، الصحاح، (ب د ع)، ٣/ ١١٨٣، ابن منظور، لسان العرب، (ب د ع)، ٦/٨.

[٢٦٧] ابن منظور، لسان العرب، (ب د ع)، ٨/ ٦.

[٢٦٨] الهاشمي، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع،/ ٢٩٨؛ الصعيدي، بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح، ٤/ ٤٧١.

[٢٦٩] الهاشمي، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع،/ ٣٢٥.

[٢٧٠] بهاء الدين السبكي، أحمد بن علي بن عبد الكافي،عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، (الناشر: المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت– لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣هـ- ٢٠٠٣م)، ٢/ ٢٨٢.

[٢٧١] العلوي، الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، ٣/ ١٣٧.

[٢٧٢] صدر الدين المدني، علي بن أحمد بن محمد معصوم، الشهير بابن معصوم، أنوار الربيع في أنواع البديع، (الكتاب مرقم آليا غير موافق للمطبوع، من ترقيم المكتبة الشاملة)، ٤٠.

وترتيبها مع اختلاف المعنى، كما في قوله تعالى:" وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍۚ كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤْفَكُونَ"[٢٧٣]، فالمراد بالساعة الأولى يوم القيامة، وبالساعة الثانية المدة من الزمان[٢٧٤]، وهو ممّا لا يتفق للبليغ إلا على ندور وقلة، فهو لا يقع موقعه من الحسن حتى يكون المعنى هو الذي استدعاه وساقه، وحتى تكون كلمته ممّا لا يبتغي الكاتب منها بدلاً[٢٧٥]، ولم يرد من هذا النوع شئ في خطبة قس.

وأما الناقص، أو ما يقال له غير التام، فهو: ما اختلف فيه اللفظان في واحد أو أكثر من الأربعة السابقة، ويجب ألا يكون بأكثر من حرف[٢٧٦]، وهو ما ورد عند قس في خطبته، من ذلك: الجناس بين مات/ فات، خبرا/ عبرا، بغى/ طغى، آجال/ آمال، ساج/ داج، ويلاحظ فيها أن مع اختلاف الحرفين في اللفظين بينهما تقارب في بعض الصفات أو المخرج، كما بين الخاء والعين، والفاء والميم، والسين والدال، والباء والطاء، والجيم والميم، وبعض الألفاظ تجد التجنيس فيها يلحظ من جهة الاشتقاق، كما قوله: مقام/ أقاموا، صار/ صائر، والمناسبة التي تجدها بين الألفاظ والتشابه النطقي بينها تنبه السامع وتحدث ميلا وإصغاء إليها، كما أن الألفاظ المتشابهة في النطق المتقاربة في اللفظ تجعل النفس تتشوف لإدراك الفارق المعنوي بينها[٢٧٧].

السجع:

السجع في الكلام المنثور كالقافية في الشعر[٢٧٨]، سأل بعض الأعراب رسولا قدم من أهل السند: كيف رأيتم البلاد؟ فقال: « ماؤُها وَشَلٌ، ولِصُّها بَطَل، وتَمْرُها

---

[٢٧٣] سورة الروم، الآية: ٥٥.

[٢٧٤] بهاء الدين السبكي،عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح،٢/ ٢٨٣؛ الهاشمي، جواهر البلاغة،/ ٣٢٦.

[٢٧٥] الهاشمي، جواهر البلاغة،/ ٣٢٦.

[٢٧٦] الهاشمي، البلاغة الواضحة،/ ٣٢٦.

[٢٧٧] بهاء الدين السبكي،عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح،٢/ ٢٨٢.

[٢٧٨] بهاء الدين السبكي،عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، ٢/ ٢٩٩؛ الدسوقي،حاشية الدسوقي على مختصر المعاني لسعد الدين التفتازاني، ٤/ ١٩٨.

(ISSN: 2536- 9555)

دَقَل، إِن كَثُرَ الجَيشُ بهَا جَاعُوا، وَإِن قَلُّوا بها ضَاعُوا،»[٢٧٩]، والسجع: السين والجيم والعين منه أصل يدل على صوت متوازن[٢٨٠]، وهو في اللغة مشتق من قول العرب: سجعت الحمامة تَسجَع سجعا، إذا دعت وطرَّبت فِي صوتها، فهي سَجوع وساجعة[٢٨١]، فهو في البهائم يعني: موالاة الصوت[٢٨٢]. وقال الخليل في تعريفه: سجَع الرجل إذا نطق بكلام له فواصل كقوافي الشعر من غير وزن[٢٨٣]، ويقال: سَجَع يَسْجَع سَجْعا: تكلم بكلام له فواصل كفواصل الشّعْر، من غير وزن، وهو من الاستواء والاستقامة والاشتباه، كأن كل كلمة تشبه صاحبتها، قال ابن جني: سمي سجعا لاشتباه أواخره، وتناسب فواصله[٢٨٤]، وذكر المبرد أن السجع من الكلام هو: أن تأتلف أواخره على نسق، كما تأتلف القوافي[٢٨٥]، أو هو: الكلام المزدوج على غير وزن، نص على ذلك الجاحظ[٢٨٦]، وعند البلاغيين: هو تواطؤ الفاصلتين من النثر على حرف واحد[٢٨٧]، وهذا معنى قول السكاكي: أن الأسجاع في النثر هي كما في القوافي في الشعر"[٢٨٨].

---

[٢٧٩] الجاحظ، البيان والتبيين، ١/ ٢٣٨؛ الأزهري، تهذيب اللغة، (س ج ع)، ١/ ٢١٩؛ الزبيدي، تاج العروس، س ج ع)، ٢١/ ١٨٠.

[٢٨٠] ابن فارس، مقاييس اللغة، (س ج ع)، ٣/ ١٣٥.

[٢٨١] الأزهري، تهذيب اللغة، (س ج ع)، ١/ ٢١٩.

[٢٨٢] المبرد، الكامل في اللغة والأدب، ٢/ ١٧٨؛ ؛ الزبيدي، تاج العروس، (س ج ع)، ٢١/١٨٠.

[٢٨٣] الخليل، العين، (س ج ع)، ١/ ٢١٤؛ الأزهري، تهذيب اللغة، (س ج ع)، ١/ ٢١٩.

[٢٨٤] ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم، (س ج ع)، ١/ ٢٩٧؛ ابن منظور، لسان العرب، (س ج ع)، ٨/ ١٥٠.

[٢٨٥] المبرد، الكامل في اللغة والأدب، ٢/ ١٧٨.

[٢٨٦] الجاحظ، البيان والتبيين، ١/ ١٥٩.

[٢٨٧]حاشية الدسوقي على مختصر المعاني لسعد الدين التفتازاني، ٤/ ١٩٠؛ الصعيدي، بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة، ٤/ ٦٥٣، ٦٥٤.

[٢٨٨] السكاكي، مفتاح العلوم،/ ٤٣١؛ الدسوقي، حاشية الدسوقي على مختصر المعاني لسعد الدين التفتازاني، ٤/ ١٩٠؛ الصعيدي، بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة، ٤/ ٦٥٣، ٦٥٤.

والخطابة في العصر الجاهلي تعتمد اعتمادا أساسيا على السجع، باعتباره أسلوبا من الأساليب الأدبية الشائعة على ألسنة الخطباء في خطبهم ومنافراتهم آنذاك، يدلك على ذلك ما أورده الجاحظ، أن ضمرة بن ضمرة وهرم بن قطبة، والأقرع بن حابس ونفيل بن عبد العزى كانوا يحكمون وينفرون بالأسجاع، وكذلك ربيعة بن حذار[٢٨٩]. وما من شك في أن صناعة السجع تحتاج إلى قيم موسيقية كثيرة، حتى تتم معادلاته الصوتية وموازناته الإيقاعية، وكانوا يدمجون كثيرا من الصور والتشبيهات والاستعارات في هذا السجع كما كانوا يدمجون كثيرا من التجويد والتحبير[٢٩٠].

فالتطريب الموسيقي المثير للنفس والمؤثر في الحس والوجدان يتأتى من التزاوج والتوازن بين السجعتين، سواء أكان هذا التوازن أوالتساوي بين الفقرات السجعية طولا وقصرا أم بين الكلمتين الأخيرتين من الفقرتين، أم بين الحرفين الأخيرين منها، والتوافق في بنيتها الصرفية بين ألفاظها أو التقارب بينهما فيؤتى به على السجية والطبع بلا تكلف أو تصنع في أسلوب بناء الجمل المسجوعة يخرجه إلى سجع الكهان[٢٩١]، والتنوع بين الجمل السجعية يجدد النشاط لدى السامع والقارئ، ويجنبه الملل والسأم من التوالي الرتيب والمستمر في الجمل النثرية، ومن ناحية المعنى فإن العرب إنما تحسّن ألفاظها وتزخرفها عناية منها بالمعاني التي تحتها، فالألفاظ إذا خدم المعاني، والمخدوم لا شك أشرف من الخادم[٢٩٢]، ومن ثم فإن السمة البارزة على المعاني في الأساليب السجعية الوضوح والقوة، مما يساعد على غرس الأفكار التي تحملها هذه الجمل وترسيخها في أذهان المخاطبين، والتأثير فيه واستمالتهم، فلا يحسن السجع إلا إذا كانت المفردات رشيقة والألفاظ خدم المعنى، والمعنى مألوف غير غريب ولا مستنكر، وكل واحدة من السجعتين دلت على معنى مغاير للمعنى

---

[٢٨٩] الجاحظ، البيان والتبيين، ١/ ٢٤١.

[٢٩٠] شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في النثر العربي،/ ٣٥.

[٢٩١] ابن وهب الكاتب، البرهان في وجوه البيان،/ ١٦٥؛ القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ٢/ ٣٠٤، ٣٠٥؛ علي الجندي، في تاريخ الأدب الجاهلي، ٢٧٣.

[٢٩٢] ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ١/ ٣٤٢.

(ISSN: 2536- 9555)

الذى دلت عليه الأخرى[٢٩٣]، وحينئذ يكون حلية ظاهرة في الكلام، لا تجد لبليغ كلاما يخلو منه كما لا تخلو منه سورة من القرآن الكريم، وإن قصرت[٢٩٤].

ومن ثم فإن ما رغب الخطباء في الأسجاع أنهم رأوا فيها تنشيطا لذهن السامع، وتيسيرا في حفظ متون الخطب لما فيها موسيقى تجعل الأذن تطرب والأفئدة تصغى وتميل، وقد سئل عبد الصّمد بن الفضل بن عيسى الرقاشي: لم تؤثر السجع على المنثور، وتلزم نفسك القوافي وإقامة الوزن؟ فقال: إن كلامي لو كنت لا آمل فيه إلا سماع الشاهد لقلّ خلافي عليك، ولكني أريد الغائب والحاضر، والراهن والغابر، فالحفظ إليه أسرع، والآذان لسماعه أنشط، وهو أحق بالتقييد وبقلة التفلّت. وما تكلمت به العرب من جيّد المنثور، أكثر مما تكلمت به من جيد الموزون، فلم يحفظ من المنثور عشرة، ولا ضاع من الموزون عشره[٢٩٥].

ويرادف مصطلح السجع في المنثور مصطلح الفاصلة في القرآن الكريم، والفاصلة هي: كلمة آخر الآية كقافية الشعر وقرينة السجعِ، والفواصل حروف متشاكلة في المقاطع يقع بها إفهام المعاني، وتقع الفاصلة عند الاستراحة في الخطاب لتحسين الكلام بها وهي الطريقة التي يباين القرآن بها سائر الكلام وتسمّى فَواصل لأنه ينفصل عندها الكلامان وذلك أن آخر الآية قد فَصل بينها وبين ما بعدها ولم يسمُّوها أسجاعا[٢٩٦]. فتعريف الفاصلة هو تعريف ينطبق على السجعة والغرض منها أو الفائدة منها هو الغرض من السجع، وما أطلق عليه العلماء سجعا أطلقوا عليه في القرآن الكريم فاصلة.

وكان الذي كرّه إطلاق الأسجاع بعينها على ما في القرآن الكريم وإن كانت دون الشعر في التكلف والصنعة، أن كهان العرب الذين كان أكثر الجاهلية يتحاكمون

---

[٢٩٣] العلوي، الطراز لأسرار البلاغة، ٣/ ١٣، ١٤؛ القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ٢/ ٣٤٠– ٣٤٢.

[٢٩٤] أحمد بن مصطفى المراغي، علوم البلاغة، (الناشر: بدون)،/ ٣٦٠، ٣٦١؛ الهاشمي، جواهر البلاغة،/ ٣٣١.

[٢٩٥] الجاحظ، البيان والتبيين، ١/ ٢٣٩.

[٢٩٦] الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ١/ ٥٣، ٥٤؛ السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ٣/٣٣٢– ٣٣٤.

إليهم، وكانوا يدعون الكهانة وأن مع كل واحد منهم رئيا من الجن، فكانوا يتكهنون ويحكمون بالأسجاع[٢٩٧]، أكثر أخبارهم عن الأمور الكونية، والأوهام الظنية، على جهة السجع وتطابق أعجاز الألفاظ[٢٩٨]، فرغبتهم في تنزيه القرآن عن الوصف اللاحق بغيره من الكلام المرويّ عن الكهنة وغيرهم دعاهم إلى تسمية كل ما في القرآن فواصل ولم يسمّوا ما تماثلت حروفه سجعًا، كما أن الأسجاع في أَصلها من سجع الطير فشرّف القرآن الكريم أن يستعار لشيء فيه لفظ هو أصل في صوت الطائر[٢٩٩].

والسجع ظاهرة ماثلة في خطبة قس من أولها إلى آخرها، فلا تخلو من السجع بين كل جملتين، كما في قوله: "ما لي أرى الناس يذهبون فلا يرجعون"، وقوله: "تبا لأرباب الغفلة والأمم الخالية، والقرون الماضية"، وتارة يكون بين أكثر من جملتين، كما في قوله: "من عاش مات ومن مات فات وكل ما هو آت آت"، وقوله: "يا معشر إياد أين ثمود وعاد وأين الآباء والأجداد"، وقوله: "مَطَرٌ وَنَبَاتٌ، وَأَرْزَاقٌ وَأَقْوَاتٌ، وَآبَاءٌ وَأُمَّهَاتٌ، وَأَحْيَاءٌ وَأَمْوَاتٌ، جَمْعٌ وَأَشْتَاتٌ، وَآيَاتٌ بَعْدَ آيَاتٍ"، وقوله: "وَأَيْنَ الْفَرَاعِنَةُ الشِّدَادُ، أَيْنَ مَنْ بَنَى وَشَيَّدَ، وَزَخْرَفَ وَنَجَّدَ، وَغَرَّهُ الْمَالُ وَالْوَلَدُ، أين من بغى وطغى وجمع فأوعى وقال أنا ربكم الأعلى". وقد مر معالجة ذلك في أكثر من موضع.

الطباق:

والطباق لون من ألوان المحسنات البديعية المعنوية، التي تضفي على الألفاظ رونقا وعلى المعاني بهاء وجمالا، يجمع فيه الأديب أو الخطيب بين معنيين متقابلين، مثبتين متضادين، أو أحدهما مثبت والآخر منفي، فهو مقابلة الشئ لمثله

---

[٢٩٧] الجاحظ، البيان والتبيين، ١/ ٢٤١؛ نصر الله بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني، ضياء الدين، ابن الأثير، الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور، تحقيق: مصطفى جواد،(الناشر: مطبعة المجمع العلمي، عام النشر: ١٣٧٥هـ)،/ ٢٥٢؛ مصطفى صادق الرافعي، تاريخ آداب العرب، (الناشر: دار الكتاب العربي، بدون)، ٢/ ١١٦؛ ضيف، الفن ومذاهبه في النثر العربي،/ ٣٨.

[٢٩٨] العلوي، الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، ٣/ ١٣.

[٢٩٩] الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ١/ ٥٤،٥٨؛ السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ٣/ ٣٣٤، ٣٣٧؛ المراغي، البلاغة العربية،/ ٣٦٣.

(ISSN: 2536- 9555)

الذي هو على قدره، فسموا المتضادين إذا تقابلا مطابقين[٣٠٠]، فهو إذن جمع بين الشئ وضده، كالسواد والبياض، والليل والنهار، والضحك والبكاء، والغنى والفقر، والصحة والمرض[٣٠١]، وهو في اللغة من قولهم: طابقت بين الشيئين إذا جمعت بينهما على حذو واحد وألزقتهما[٣٠٢]، أو هو من قول العرب: طابق البعير في مشيه إذا وضع خف رجله موضع خف يده[٣٠٣]، وسمي طباقا لموافقة الضدين في الوقوع في جملة واحدة واستوائهما في ذلك[٣٠٤].

وهو نوعان: طباق الإيجاب، وطباق السلب، أما طباق السلب فهو أن يأتي المتكلم بجملتين أو كلمتين إحداهما موجبة والأخرى منفية، ومثال ذلك: قول بشر بن هارون وقد ظهر منه فرح عند الموت، وقيل له: أتفرح بالموت، فقال: ليس قدومي على خالق أرجوه كمقامي مع مخلوق لا أرجوه[٣٠٥]، ولم يرد منه شئ في خطبة قس، وأما طباق الإيجاب، فمنه قوله تعالى: "وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى"[٣٠٦]، ومما جاء منه

---

[٣٠٠] أبو القاسم الحسن بن بشر الآمدي، الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري، تحقيق: السيد أحمد صقر، (الناشر: دار المعارف– الطبعة الرابعة [سلسلة ذخائر العرب (٢٥)، ٢٨٩/١؛ حازم بن محمد بن حسن، ابن حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق: محمد الحبيب،(الناشر: دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة: الثالثة، ١٩٨٦م)، ٢/ ٤٨.

[٣٠١] ضياء الدين، ابن الأثير، الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور،/ ٢١١؛ أبو على الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي، العمدة في محاسن الشعر وآدابه، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، (الناشر: دار الجيل، الطبعة: الخامسة، ١٤٠١هـ– ١٩٨١م)، ٢/ ٥؛ الشريشي، شرح مقامات الحريري، ٢/ ١٩٤.

[٣٠٢] الخليل بن أحمد، العين، (ط ب ق)، ٥/ ١٠٩؛ الأزهر، تهذيب، اللغة، (ط ب ق)، ٩/ ٣٢؛ ابن رشيق، العمدة في محاسن الشعر وآدابه، ٢/ ٦.

[٣٠٣] عبد العظيم بن الواحد بن ظافر ابن أبي الإصبع العدواني، تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، تحقيق: حفني محمد شرف، (الناشر: الجمهورية العربية المتحدة– المجلس الأعلى للشئون الإسلامية– لجنة إحياء التراث الإسلامي)،/ ١١١؛ ابن الأثير، المثل اسائر في أدب الكاتب والشاعر، ٢/ ٢٦٤.

[٣٠٤] إبراهيم بن محمد بن عربشاه عصام الدين الحنفي،الأطول شرح تلخيص مفتاح العلوم، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، (الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان)، ٢/ ٣٦٨.

[٣٠٥] ابن أبي الإصبع، تحرير التحبير،/ ١١٤.

[٣٠٦] سورة النجم، الآية: ٤٣.

عند قس في خطبته، قوله: من عاش مات/ حيث طابق بين عاش ومات، وقوله: وَأَحْيَاءٌ وَأَمْوَاتٌ، وقوله: جَمْعٌ وَأَشْتَاتٌ، وقوله: وَذَاهِبٌ وَآتٍ، وقوله: وَضَوْءٌ وَظَلَامٌ، وَبِرٌّ وَآثَامٌ، وكذلك: السماء/ الأرض، في قوله (وَسَمَاءٌ ذَاتُ أَبْرَاجٍ، وَأَرْضٌ ذَاتُ رِتَاجٍ)، وكذلك: الليل/ النهار (ليل داج ونهار ساج)، ومن الشعر عنده: (مواردا/ مصادر)، (الأصاغر والأكابر) **في قوله:**

لَمَّا رَأَيْتُ مَوَارِدًا ** لِلْمَوْتِ لَيْسَ لَهَا مَصَادِرُ

وَرَأَيْتُ قَوْمِي نَحْوَهَا ** تَمْضِي الأصاغر والأكابر

ومن ألوان الطباق عند قس ما تراه من ازدواج ومقابلة بين أكثر من اثنين، وذلك في قوله: "مِهَادٌ مَوْضُوعٌ، وَسَقْفٌ مَرْفُوعٌ"، حيث قابل بين مهاد وسقف، وموضوع ومرفوع.

وكما هو جلي من الأمثة عند قس أن العلاقة بين المتقابلين تقوم على علاقة الضدية في الجمع بين المعنيين، وفيها جمع قس بين المتضادات لتقوية أمر بذكر ضده بغرض التأكيد، وليناسب بين المعنيين ويلائم بينهما من خلال تشابه أطراف الكلام والجمل[٣٠٧]، وعلاقة الضدية أسرع ورودا إلى الذهن من غيرها عند تداعي المعاني، واقتضائها في الكلام، فبالضد يعرف الضد، وبه يسترعي انتباه السامع فيكون أكثر حضورا وانجذابا للمتكلم، وهو يدل على اقتدار الأديب في صنعته، والعرب تستعمله في أشعارها طبعا أكثر من التجنيس[٣٠٨]،وكلاهما في كلام قس السابق نثرا وشعرا، وجمال الطباق عنده يتأتي من كونه يزيد المعنى حسنا وجمالا، كما أنه ينبه المخاطب عليه[٣٠٩]، بالإضافة إلى ذلك فإن الطباق على الرغم من كونه محسنا معنويا فهو لا يخلو من تحسين في اللفظ يخدم المعنى[٣١٠]، على النحو الذي رأيناه فيما سبق النص عليه من أمثلة في خطبة قس، وذلك إذا روعي فيه

---

[٣٠٧] المجذوب، المرشد إلى فهم أشعار العرب، ٢/ ٣٠٠، ٣٠١؛ حبنكة، البلاغة العربية، ٢/ ٣٨٢.

[٣٠٨] المستعصمي، الدر الفريد وبيت القصيد، ١، ١٦٧.

[٣٠٩] أحمد بن علي بن عبد الكافي، أبو حامد، بهاء الدين السبكي، عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، تحقيق: عبدالحميد، هنداوي، (الناشر: المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت– لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣هـ- ٢٠٠٣م)، ٢/ ٢٢٥.

[٣١٠] ابن عربشاه،الأطول شرح تلخيص مفتاح العلوم، ٢/ ٣٦٨.

(ISSN: 2536- 9555)

توافق البناء الصرفي، وتوافق الجملتين وتناسبهما من حيث الطول والقصر، أي الاعتدال في تركيب الجملة، وكذلك توافقهما في السجعة. فهو في هذه الحالة يأتي لتحقيق جانب صوتي موسيقي في الجملة عندما يكون الغرض منه رعاية السجع أو القافية والمحافظة عليهما، ودفع التطويل في الجمل ورعاية تناسب الاشتقاق وتلاؤمه(٣١١).

وقد يوجد في الكلام ما صورته صورة الطباق وليس بمطابقة من جهة المعنى، لانتفاء الضدية بينهما، كما في قول قيس بن الخطيم: **(من الطويل)**

فإنّي لأغنَى الناسِ عن كلِّ واعظ ** يرى النَّاسَ ضُلاّلا وليس بمُهتدِي(٣١٢)

وقد ورد هذا اللون عند قس، وذلك في قوله: "مَالِي أَرَى النَّاسَ يَذْهَبُونَ فَلا يَرْجِعُونَ"، فيرجعون منفي بلا في مقابل يذهبون، صورته صورة الطباق، ولكنه ليس من طباق السلب في شئ؛ لأن لا يرجعون في معنى يذهبون، فليس بينهما تضاد، ولطيفته أنه وضح المعنى في يذهبون، بمعنى يموتون وأكده وقواه، فجملة لا يرجعون، فيها معنى الذهاب وزيادة كونه بلا عودة.

الجمع بين الشعر والنثر في الخطبة:

على الرغم من أن الخطابة فن نثري يختلف عن الشعر في نسقه وأسلوبه إلا أن الخطباء قد حرصوا على تضمين خطبهم بعض الأبيات الشعرية لإضفاء نوع من الروعة والجمال على أساليبهم النثرية(٣١٣) لإدراكهم مدى خطورة الشعر وتأثيره في وجدان السامعين واستمالتهم، فمن أساليب العرب وطرائق كلامها منذ العصر الجاهلي أن يجمع الخطيب بين الشعر والخطابة في كلامه، فإليهم يرجع الفضل في الاستشهاد بالشعر والاستئناس به في الخطابة، حتى صار ذلك سنة عند الخطباء إلى يومنا هذا، فقلما تجد خطيبا على منبر أو بين قوم أو جماعة في تهنئة أو تعزية أو أي مناسبة اجتماعية إلا ويسوق بين ثنايا كلامه ما يعضده من شعر مأثور فيما هو بصدده، وكأنه بعد أن ساق من الحجج والبراهين ما يقنع به الجمهور في المنثور من كلامه عرض من الشعر ما يحرك به وجدانهم وشعورهم، فيستميلهم بهذا

(٣١١) ابن عربشاه،الأطول شرح تلخيص مفتاح العلوم،١/ ١٣٩.
(٣١٢) القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ٢/ ٥١.
(٣١٣) الجندي، في تاريخ الأدب الجاهلي،/ ٢٧٣.

الأسلوب إليه ويجذبه جذبا لا فكاك منه، بعد أن أحكم خطبته بالأدلة والحجج. وخطيبنا قس بن ساعدة كان من هذا الصنف الذي جمع في خطبه بين الشعر والنثر، وهو في الأصل شاعر جرى الشعر على لسانه كالخطابة، فإيراد شعره في خطبه مناسب لشاعريته، ولا حاجة عنده أن يستشهد بشعر غيره، كالخطباء الذين لا تجتمع فيهم الشاعرية والخطابة، ومن يجمع الشعر والخطابة قليل[٣١٤].

وما أورده من أشعار في خطبه لا تخرج عن الموضوع الذي يتكلم فيه، ولا عن الإطار الذي جاء فيه كشاهد على كلامه السابق، وتلحظ أن شعره هنا قد أتى في ختام خطبته، وكأنه قصد من ذلك أن يلخص ما أورده من أفكار وآراء ومعتقدات له بطريقة آخرى تنزل منزلة التكرار لتقوية كلامه وتأكيد ما ذهب إليه، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فيه تنويع في الأسلوب حتى لا يمل السامع أو يسأم من توالي كلام الخطيب على نمط واحد فينفر منه أو لا يصغي إليه، فتقل درجات الاستجابة والاستمالة عنده، ومن ثم لا يحقق الهدف من الخطبة والمتمثل في إقناع الجمهور واستمالتهم إلى ما يدعو إليه أو يؤمن به.

وشعره الذي وردت به الرواية في خطبته عبارة عن مقطوعة من خمسة أبيات تتفق جميع الروايات بمختلف مصادرها الحديثية والتاريخية والأدبية على إيرادها حتى رأينا في بعض الروايات التي نسبت روايتها إلى النبي صلى الله عليه وسلم تنسب رواية الأشعار فيها إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه، ففيها: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «ثُمَّ أَنْشَدَ قُسُّ بْنُ سَاعِدَةَ أَبْيَاتًا مِنَ الشِّعْرِ لَمْ أَحْفَظْهَا عَنْهُ» فقام أبو بكر الصديق رضي الله عنه، فقال: أنا حضرت ذلك المقام، وحفظت تلك المقالة. فقال له رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «ما هي؟» فقال له أبو بكر: قال قس بن ساعدة في آخر كلامه: (من مجزوء الكامل)

فِي الذَّاهِبِينَ الأَوَّلِينَ ** مِنَ الْقُرُونِ لَنَا بَصَائِرُ
لَمَّا رَأَيْتُ مَوَارِدًا ** لِلْمَوْتِ لَيْسَ لَهَا مَصَادِرُ
وَرَأَيْتُ قَوْمِي نَحْوَهَا ** تَمْضِي الأصاغر والأكابر
لا يرجع الماضي إلي ** ولا من الباقين غابر

[٣١٤] الجاحظ، البيان والتبيين، ١/ ٦٠.

(ISSN: 2536- 9555)

أيقنـــــــت أنـــــــى لا محـــــــا ** لـــة حَيْـثُ صَـارَ الْقَـوْمُ صَـائِرُ[٣١٥]

وأسلوب قس في شعره لا تختلف لغته عنه في خطبته هذه، لا من حيث وضوح الألفاظ وبيانها، وتحاشي الغريب منها غير المألوف على الألسنة؛ ولا من حيث الغرض منها، إذ كانت هذه الأبيات جزءا من بناء الخطبة وموضوعها والهدف منها، ولما كانت الخطبة تهدف إلى الدعوة إلى توحيد الله والتذكير بالموت والبعث والحساب والجزاء صب الشعر في الاتجاه نفسه، فلوحظ في ألفاظه ما لوحظ في ألفاظ الخطبة من السهولة والوضوح والفصاحة والبيان. وحديثه عن الموت لا ينبغي أن ننظر إليه بشكل مستقل منفرد إن في النثر أو في الشعر بل ورد عنده في سياق خطابي دعوي، يدعو فيه إلى إصلاح المجتمع الذي يعيش فيه، وينبع من شخصية رفيعة على دراية تامة بمشكلات هذا المجتمع، الدينية والأخلاقية.

وابتدأ أبياته بالعدول عن الجملة الفعلية إلى الجملة الإسمية، فعبر باسم الفاعل في قوله: "في الذاهبين الأولين لنا بصائر" بدلا من الفعل الماضي الذي جرى عليه في نسق الحكاية عن الأمم الغابرة ليدل باسم الفاعل على الثبوت والدوام والاستمرار، فالذاهبون الأولون من الأمم الماضية على هيئة ثابتة دائمة ومستمرة لا تتغير، اقترنت بحالة دائمة هي حالة الموت التي لا تنفك عنهم، فقد عنى بالذاهبين الأموات الذين لا يرجعون إلى الدنيا[٣١٦]، وأن أخذ العظة والعبرة والبصائر من هؤلاء ظاهرة ثابتة ودائمة، وحاصلة لا محالة، كما أن تعريفه بأل (الذاهبين) أقوى من تنكيره، فدل بالتعريف على ماهية هؤلاء الذاهبين، واستحضرهم[٣١٧] أمام السامعين فضلا عن استغراقهم جميعا وشمولهم كل الذاهبين ممن كانوا على هذا الوصف أعني الموتى من الأولين، وذلك بحكم الموقف الخطابي الذي يقتضي اعتبار الخطاب بأل في الذاهبين للجنس ليستغرق كل الذاهبين من الموتى، وليس للعهد، لعدم قصده الخطيب طائفة بعينها جرى الحديث عنها آنفا ممن ذهبوا فيخصهم بخطابه، أو يستحضرهم بذكرهم

---

[٣١٥] البيهقي، دلائل النبوة، ٢/ ١٠٣؛ البزار، مسند البزار، ١١/ ٤٧٠؛ الشُّريشي، ٣/ ١٩٨.

[٣١٦] ابن الأثير، منال الطالب شرح الطوال الغرائب،/ ١٣٩؛ ابن درستويه، خبر قس بن ساعدة، ١٧٣.

[٣١٧] ابن عاشور، التحرير والتنوير ١٤/ ٢٩٠؛ محمد بن يوسف بن أحمد، محب الدين الحلبي ثم المصري، المعروف بناظر الجيش، شرح التسهيل، المسمى «تمهيد القواعد بشرح تسهيل الفوائد»، تحقيق: علي محمد فاخر، (الناشر: دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة– جمهورية مصر العربية، الطبعة: الأولى، ١٤٢٨ هـ)، ٢/ ٨٢٥، وما بعدها.

في معرض خطابه لقومه. قال الكفوي: " وإذا دخل الألف واللام في اسم فردا كان أَو جمعا وكان ثمَّة معهود يصرف إليه إجماعًا، وإن لم يكن ثمَّة معهود يحمل على الاستغراق عند المتقدمين وعلى الجنس عند المتأخرين، إلا أَن المقام إذا كان خطابيا يحمل على كل الجنس وهو الاستغراق[٣١٨]".

وهو ما يناسب أيضا كثرتهم، أي كثرة الذاهبين منهم ومن الأمم الغابرة على اختلاف أزمانهم وأماكنهم، كما روعي ذلك أيضا في لفظة بصائر جمع تكسير دال على الكثرة، جمع بصيرة، وهي معرفة الشئ والتيقن له، مأخوذ من البصر بالأشياء والعلم بها، ففيمن مضى من الأمم عبر لمن بقي منها[٣١٩] فناسب بذلك بين الخبر والمبتدأ من حيث المعنى فكثرة الذاهبين ناسبه كثرة البصائر والعبر فيهم، كما أن تقديم الخبر شبه الجملة (في الذاهبين) دل على اختصاصم بالبصائر وثبوتها لهم، ووقوع المبتدأ (بصائر) نكرة دل على الشيوع والعموم، فبناء الجملة جميعها تجري هلى هذا النسبق البديع المناسب لإيراده ضمن الأسلوب الخطابي من ناحية ومناسب للكثرة والشيوع في كل من المبتدأ والخبر من ناحية أخرى.

وبنى قس جملة (لَمَّا رَأَيْتُ مَوَارِدًا... لِلْمَوْتِ)على الشرط ليربط بين جملتين[٣٢٠]، بين جملة فعل الشرط (رأيت) وجملة جوابه (أيقنت) فترتب تحقق اليقين على تحقق الرؤية إذ علقه عليه، وفيه توكيد الفعل الواقع بعدها (رأيت)، والدال بصيغته الماضوية على وقوع فعل الرؤية وتحققه؛ إذ بدخولها على الفعل الماضي أشعرت بتحقق وقوع جوابها لتحقق وقوع الفعل الماضي بعدها، ولما كان الأسلوب جاريا على هذا النسق من توكيد الكلام وتقويته عبر بالفعل (أيقنت) الدال أيضا بصيغته الماضوية على تحقق الفعل ووقوعه، فضلا عن دلالته المعجمية الدالة على اليقين،أي على إزالة الشك وتحقق الأمر[٣٢١]، فقال: (أيقنت أني لا محالة حيث صار القوم صائر).

---

[٣١٨] الكفوي، الكليات،/ ١٦٥.

[٣١٩] ابن درستويه، خبر قس بن ساعدة،/ ١٧٣؛ ابن فارس، مقاييس اللغة، (ب ص ر)، ٢٥٣/١.

[٣٢٠] عبده الراجحي، التطبيق النحوي، (الناشر: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الطبعة: الأولى ١٤٢٠هـ- ١٩٩٩م)،/ ٢٤٠.

[٣٢١] الأزهري، تهذيب اللغة، (ي ق ن)، ٩/ ٢٤٥؛ ابن فارس، مقاييس اللغة، (ي ق ن)، ١٥٧/٦؛ الجوهري، الصحاح، (ي ق ن)/ ٢٢١٩.

(ISSN: 2536- 9555)

ولمّا: ظرفٌ للزمانِ الماضي، بمعنى "حينٍ" أو "إذْ". متضمن معنى الشرط، وهي بهذا المعنى تختص بالدخول على الفعل الماضي، وتقتضي جملتينِ فعلاهما ماضيانِ لفظا ومعنى، وجدت ثانيتهما عِنْد وجود أولاهما، على النحو الذي رأيناه في كلام قس السابق، ومن العلماء من يرى أنها حرف لربط جملتيها، ربط السببية، وسمّوها حرف وجود لوجود، أي أنه للدلالة على وجود شيء لوجود غيره[٣٢٢].

وفي قوله: لَمَّا رَأَيْتُ مَوَارِدًا... لِلْمَوْتِ لَيْسَ لَهَا مَصَادِرُ) قدّم (مواردا) على الجار والمجرور (للموت) ليدل بذلك على اختصاص الموت بهذه الموارد، فمهما تشعبت مسالك الإنسان ودروبه في الدنيا فإنها في النهاية تؤدي به إلى طريق واحد وهو الموت؛ إذ هذه الموارد من موارده، والموارد جمع مورد، وهو: المنهل موضع النهل من الماء، أو هو الطريق إلى الماء[٣٢٣]، وتنكيره أفاد الشيوع والعموم، وأضفى عليها نوعا من التفخيم والتهويل والتعظيم، فهي موارد مهولة عظيمة فلا يوجد مورد منها إلا وهو من موارد الموت، وأكد هذا المعنى بقوله ليس لها مصادر، فما دامت هذه الموارد هي من موارد الموت والموت لا رجعة منه إلى الدنيا وهذا شئ محقق نعاينة فمن المعلوم إذن ألا يكون ثَمَّ مصادر نرجع منها عن الموت إلى الدنيا مرة أخرى.

وقوله: "وَرَأَيْتُ قَوْمِي نَحْوَهَا... تَمْضِي الأصاغر والأكابر" عطف (ورأيت) على "لما رأيت) فاشتركت معها في الحكم والشرط، وخص قومه بالذكر دون غيرهم ليسهم ذلك في إلانة قلوب المخاطبين وتوجيههم نحو ما يقصده الخطيب الذي هو منهم ووعظهم بما يعاينوه هم في ذهاب آبائهم وآجدادهم؛ لأن أخذ العظة والعبرة من ذهاب الأقرباء من قومه وموتهم أليق وأبلغ في التأثير والموعظة من أخذها من غيرهم.

وفي قوله: (تَمْضِي الأصاغر والأكابر) عدل عن صيغة الماضي الأصلية،(مضى الأصاغر والأكابر) إلى صيغة المضارع (تمضي) مع أن الحديث

---

[٣٢٢] محمد بن مصطفى القُوجَوي، شيخ زاده، شرح قواعد الإعراب لابن هشام، تحقيق: إسماعيل إسماعيل مروة، (الناشر: دار الفكر المعاصر (بيروت– لبنان)، دار الفكر (دمشق– سورية)، الطبعة: الأولى، ١٤١٦هـ– ١٩٩٥م)، ١/٣٠، ٩٢؛ بدر الدين بن فرحون، العدة في إعراب العمدة، ٣/ ٤٨؛ الكفوي، الكليات،/ ٧٩٠؛ مصطفى بن محمد سليم الغلاييني، جامع الدروس العربية، (الناشر: المكتبة العصرية، صيدا– بيروت، الطبعة: الثامنة والعشرون، ١٤١٤هـ– ١٩٩٣م)، ٣/ ٦٨؛ عبده الراجحي، التطبيق النحوي،/ ٢٤٠.

[٣٢٣] ابن منظور، لسان العرب، (ورد)، ٣/ ٤٥٦.

عن حالة هؤلاء الذاهبين الذين مضوا وماتوا، بدليل قوله: (وَرَأَيْتُ قَوْمِي نَحْوَهَا..)، أراد بهذا العدول إلى صيغة المضارع أن يحكي هذه الحالة الماضية، ويستحضر صورتها مشخصة في أذهان المخاطبين[٣٢٤]، وهذا العدول من الماضي إلى المضارع مناسب لأسلوب الحكاية الذي اعتمده قس في سرد أحداث ماضية، شخصها أمام الناظرين كأنها حاضرة ماثلة بين أيديهم، فبعث فيها الحياة والحركة[٣٢٥]، ورسم لها صورة توحي بالتهويل والتخويف وتدعو إلى أخذ العبرة والعظة من مآلهم ومصيرهم، فها هم يمضون إلى الموت، وأنتم تعاينون ذلك في صغيرهم وكبيرهم، وحتما ستصيرون إلى ما صاروا إليه؛ لهذا عبر بصيغة الماضي تاليا لهذة الصورة على أنها نتيجة واستخلاص متحقق الوقوع، قد تمّ من النظر في حالهم، فقال: (أيقنت أنى لا محا... لة حَيْثُ صَارَ الْقَوْمُ صَائِرُ) لتحقق اليقين عنده، وتؤكد وقوعه موقع التسليم والرضا كان التعبير بالفعل الماضي أيقنت.

وقصد بـ (تمضي) الذهاب، أي تمضي إلى الموت، وفي رواية: "يسعى" وإيثار الفعل يسعى على الرواية الثانية للإشارة إلى سرعة مضي الناس، وانتقالهم من حال الحياة في الدنيا إلى الموت[٣٢٦]، وعبر بالفعل المضارع ليدل به على تجدد الفعل وحدوثه واستمراره وتكرره مرة بعد مرة، فكلما وجد ميلاد في الدنيا وجد سعي ومضي إلى الموت، ومن ثم يستوي فيها الأصاغر والأكابر، وآثر جمع الأكابر، جمعا للأكبر، ليزاوج به الأصاغر جمع الأصغر، ولكي تسلم له القافية، فالمقطوعة رائية، وليدل بهما على بلوغ المنتهى في الصغر والكبر، سواء أكان ذلك في السن أو المقام، والمعنى يحتملهما، فالموت لا يستثني أحدا لا صغيرا في السن أو المقام، ولا كبيرا في السن أو المقام.

وفي قوله:

أيقنـــــــت أنـــــــي لا محـــــــا ** لـــة حيـــث صـــار القـــوم صـــائر

تجد اعتراضه بقوله (لا محالة) بين ركني الجملة اسم إن وخبرها وتوسطها هكذا قبل تمام المعنى يدل على إسراع خطيبنا في نفي الشبهة أو الشك الذي قد يدخل

---

[٣٢٤] الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ١٣/ ٣٣٩؛ محمد عبد الخالق عضيمة، دراسات لأسلوب القرآن الكريم، (الناشر: دار الحديث، القاهرة، بدون)، ١٤٣/١.

[٣٢٥] عبد السلام الراغب، وظيفة الصورة الفنية في القرآن، ٢٨٣.

[٣٢٦] ابن درستويه، خبر قس بن ساعدة،/ ١٧٣.

(ISSN: 2536- 9555)

على النفس فيزعزع يقينها ويلبس عليها اعتقادها، لا سيما عند من طمست بصيرتهم واعوجت فطرتهم، فخطيبنا على يقين لا ريب فيه من أنه صائر حيث صار من سبقه من الناس إلى الموت الذي يعقبه البعث والحساب، فقوله: (لا محالة) يكشف لنا عن إيمانه الجازم، ويقينه الذي لا شبه فيه ولا شك؛ إذ كانت هذه المفردة تستخدم فيما يراد به التعبير عن اليقين والحقيقة المؤكدة، حيث قالوا في تفسيرها: (لا محالة) أي لا بد، أو لا ريب. وأكثر ما تستعمل بمعنى اليقين والحقيقة، أو بمعنى لابد[٣٢٧]، أيما كان اشتقاقها من الحيلة، أو من الحول، أي القوة[٣٢٨]، كما أنك تلحظ أن هذه المفردة قد جاءت في معنى اليقين المنصوص عليه في (أيقنت) تلك التي وردت في صدر البيت جوابا للشرط المتحقق فعله في "لما رأيت"، والتي تعني أيضا تيقنت بعلم يقيني لا يشوبه شبهة أوشك، ولما كانت هذه الأخيرة في معنى لا محالة فكأنه كرر لفظها مرتين لضرب من التوكيد والتقوية لكلامه، لا سيما وهو بصدد الإخبار عن موضوع الموت وما سيعقبه من بعث، وهو موضع زلت فيه الأقدام وخاض فيه الوثنيون من قبائل العرب، وكذا المشككون المنكرون للبعث بعد الموت.

ولإدراك الخطيب أهمية الشعر وروايته عند العرب وتأثيره فيهم، فضلا عن كونه هو أيضا شاعرأجمل ما نص عليه في خطبته فكانت أشعاره عبارة عن خاتمة للخطبة لخص فيها الأفكار التي دعا إليها في خطبته، وأوردها على وزن بحر الكامل من مجزوء الكامل، وهو ما حذف ثلثه وبقي على أربع تفعيلات (متفاعلن متفاعلن... متفاعلن متفاعلن)[٣٢٩]، وبحر الكامل نظير الطويل والبسيط في حسن الذوق وكثرة الاستعمال في شعر العرب، وقد قال أبو العلاء المعري في كتابه جامع الأوزان: إن أكثر أشعار العرب من الطويل والبسيط والكامل، ومن تصفح أشعارهم وقف على صحة ذلك[٣٣٠].

---

[٣٢٧] ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر، ٤/ ٣٠٤؛ ابن الأثير، منال الطالب في شرح طوال الغرائب،/ ١٤٠؛ ابن درستويه، خبر قس بن ساعدة،/ ١٧٣.

[٣٢٨] ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر، ٤، ٣٠٤؛ ابن منظور، لسان العرب، (م ح ل)، ١١/ ٦٢١.

[٣٢٩] عبدالعزيز العتيق، علم العروض والقافية، (الناشر: دار النهضة العربية بيروت)،/ ٦٠.

[٣٣٠] بدر الدين الدماميني، العيون الفاخرة الغامزة على خبايا الرامزة،/ ٢٣.

الخاتمة

خلصت الدراسة إلى جملة من النتائج يمكن تلخيصها فيما يلي:

- تنوع أسلوب قس في خطبته بما يناسب المقام والمخاطبين معا، فجاء خطابه بين الخبر والإنشاء والتقرير والتأكيد والترغيب والترهيب وسرد قصص الغابرين وضرب الأمثلة في قالب دعوي وعظي يغلب عليه الحكمة والنصح والإرشاد، وخاطب عقولهم بالأدلة، ليصل إلى هدفه في إقناع السامعين واستمالتهم.
- بنى قس خطبته على المحسنات البديعية من جناس وطباق وسجع ومقابلة بين المعاني والألفاظ، وتوازن بين الجمل والتراكيب والعبارات والألفاظ الفصيحة الواضحة ذات المخارج الحسنة، وقد جاءت بسيطة سهلة لا تكلف فيها، فأضفت جانبا موسيقيا في الأداء جذب انتباه السامعين وملك عليهم حسهم ووجدانهم، فضلا عما أدته من توضيح المعنى وتقويته.
- الأدلة التي ساقها الخطيب لإقناع الجمهور في دعوته إلى توحيد الله كلها أدلة مادية وشواهد حسية من واقع ما يشاهده المخاطبون من حولهم في الكون من سماء وأرض وليل ونهار وبحار وأنهار، تحرك فيهم ملكة التفكير وترشدهم إلى الخالق بأسلوب بسيط خال من الأفكار الفلسفية والبراهين المنطقية فناسب بذلك حال السامعين وبساطة عقولهم وواقعهم الاجتماعي.
- خاطب النص عقول العرب في دعوتهم إلى توحيد الله بخطاب عقلي مقنع، فلم يلجأ الخطيب إلى ما يشوش فكرهم ويبعدهم عن الهدف الذي من أجله دعاهم؛ لذا جاء أسلوب الخطبة خلوا من الصور الفنية الخيالية، التي تأخذ السامع إلى عالم من الخيال بعيدا عن الواقع إلا ما ندر من استعارة واحدة مشهورة في أساليب العرب وأشعارها وقد وظفها الشاعر بمهارة في الأسلوب الترهيبي من خطبته لتحدث في نفس السمع صدمة نفسية شعورية توقظه مما هو فيه.
- امتازت الألفاظ بالسهولة والوضوح ذات الدلالات الحسية المستعملة والمتداولة على ألسنتهم، فلا تجد فيها لفظا غريبا نابيا أو غليظا جافيا، تنفر منه الأذن أو لا يقف السامع على معناه، كما أن الجمل قصيرة بسيطة في تركيبها لا يلتبس

(ISSN: 2536- 9555)

معناها على السامعين لطولها أو يمل منها فتختلط عليه أفكارها، وهو أمر في غاية الأهمية بالنسبة ليس لقس في خطبته فحسب بل أيضا لفن الخطابة بصفة عامة.

- اعتمد قس في إيصال صوته على حروف المد واللين لامتداد الصوت بها، فلا تكاد تخلو جمل الخطبة منها، إن في داخل بنيتها أو في أواخرها من السجعات، التي ختمت بحرف من حروف المد واللين، أو بحرف من حروف الزيادة، والتي تشبه حروف المد واللين، كالهمزة والتاء والهاء والنون واللام.، أو من غيرهما كالجيم والدال والراء، وقد جمعت بين جميعها العلاقة الصوتية القائمة على المخرج أو الصفة.
- حرص خطيبنا قس على تضمين نصه الخطابي شيئا من الشعر؛ لإداراكه أهمية الشعر وروايته عند العرب، وتأثيره الكبير على نفسية المتلقي العربي الذي لا يعرف من فنون الأدب فنا أعظم من الشعر، فجاء شعره صورة معبرة لما جاء في نص الخطبة، حيث أجمل فيه ما نص عليه في خطبته، فكانت أشعاره عبارة عن خاتمة للخطبة لخص فيها الأفكار التي دعا إليها في النص.

فهرست بأهم المصادر والمراجع

١. إبراهيم بن محمد بن عربشاه عصام الدين الحنفي، الأطول شرح تلخيص مفتاح العلوم- ت: عبد الحميد هنداوي- الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان.
٢. ابن الأثير، مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد، منال الطالب في شرح طوال الغرائب- ت: محمود الطناحي- الناشر: مكتبة الجانجي القاهرة- مطبعة المدني، مصر، بدون.
٣. ابن الجوزي، جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد، الموضوعات- ت: عبد الرحمن محمد عثمان- الناشر: المكتبة السلفية بالمدينة المنورة- ط: الأولى، جـ ١، ٢: ١٣٨٦هـ- ١٩٦٦م، جـ ٣: ١٣٨٨هـ- ١٩٦٨م.
٤. ابن الشجري، ضياء الدين أبو السعادات هبة الله بن علي بن حمزة، أمالي ابن الشجري- ت: محمود محمد الطناحي الناشر: مكتبة الخانجي، القاهرة- ط: الأولى، ١٤١٣هـ- ١٩٩١م.
٥. ابن حمزة الحسيني، إبراهيم بن محمد بن محمد كمال الدين، البيان والتعريف في أسباب ورود الحديث الشريف- ت: سيف الدين الكاتب- الناشر: دار الكتاب العربي- بيروت.
٦. ابن دُرُسْتَوَيْه، أَبُو محمد، عبد الله بن جعفر بن محمد، تصحيح الفصيح وشرحه- ت: محمد بدوي المختون- الناشر: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية- القاهرة، عام النشر: ١٤١٩هـ- ١٩٩٨م.
٧. ابن درستويه، خبر قس بن ساعدة الإيادي- ت: محمد بدوي المختون- الناشر: مجلة كلية اللغة العربية- جامعة الإمام محمد بن سعود- السعودية، العدد ١٤/ ١٣.
٨. ابن سيده، أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي، المحكم والمحيط الأعظم- ت: عبد الحميد هنداوي- الناشر: دار الكتب العلمية- بيروت- ط: الأولى، ١٤٢١هـ- ٢٠٠٠م.
٩. ابن سيده، المخصص- ت: خليل إبراهم جفال- الناشر: دار إحياء التراث العربي- بيروت- ط: الأولى، ١٤١٧هـ- ١٩٩٦م.
١٠. ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد، أصول الإنشاء والخطابة- ت: ياسر بن حامد المطيري- الناشر: مكتبة دار المنهاج للنشر والتوزيع- الرياض- المملكة العربية السعودية- ط: الأولى، ١٤٣٣هـ.
١١. ابن عاشور، التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»- الناشر: الدار التونسية للنشر- تونس، سنة النشر: ١٩٨٤م.

(ISSN: 2536- 9555)

١٢. ابن عبد ربه الأندلسي، أبو عمر، شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد ربه، العقد الفريد– الناشر: دار الكتب العلمية– بيروت– ط: الأولى، ١٤٠٤هـ.
١٣. أبو أحمد العسكري، الحسن بن عبد الله بن سعيد بن إسماعيل، المصون– ت: عبد السلام محمد هارون– الناشر: مطبعة حكومة الكويت– ط: الثانية، ١٩٨٤م.
١٤. أبو إسحق إبراهيم بن موسى الشاطبي، الكتاب: المقاصد الشافية في شرح الخلاصة الكافية (شرح ألفية ابن مالك)– ت: عبدالرحمن العثيمين– الناشر: معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى– مكة المكرمة– ط: الأولى، ١٤٢٨هـ– ٢٠٠٧م.
١٥. أبو إسحق برهان الدين محمد بن إبراهيم بن يحيى بن علي المعروف بالوطواط، غرر الخصائص الواضحة، وعرر النقائض الفاضحة– ت: ابراهيم شمس الدين– الناشر: دار الكتب العلمية– بيروت– لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٩هـ– ٢٠٠٨م.
١٦. أبو البقاء الكفوي، أيوب بن موسى الحسيني القريمي، الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية– ت: عدنان درويش، وآخر،– الناشر: مؤسسة الرسالة– بيروت.
١٧. أبو البقاء عبد الله بن الحسين بن عبد الله العكبري، شرح ديوان المتنبي– ت: مصطفى السقا، وآخرين– الناشر: دار المعرفة– بيروت.
١٨. أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد، الجرجاني، دلائل الإعجاز– ت: محمود شاكر– الناشر: مطبعة المدني بالقاهرة– دار المدني بجدة– ط: الثالثة ١٤١٣هـ– ١٩٩٢م.
١٩. أبو الحسن المجاشعي، المعروف الأخفش الأوسط، القوافي، تحقيق: أحمد راتب النفاخ– الناشر: دار الأمانة– ط: الأولى، ١٣٩٤هـ– ١٩٧٤م.
٢٠. الأخفش الأوسط، معاني القرآن– ت: هدى محمود قراعة– الناشر: مكتبة الخانجي، القاهرة– ط: الأولى، ١٤١١هـ– ١٩٩٠م.
٢١. أبو العرفان محمد بن علي الصبان، حاشية الصبان على شرح الأشمونى لألفية ابن مالك– الناشر: دار الكتب العلمية بيروت– لبنان– ط: الأولى ١٤١٧هـ– ١٩٩٧م.
٢٢. أبو الفتح عثمان بن جني، الخصائص– ت: محمد النجار– الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب– ط: الرابعة.
٢٣. ابن جني، سر صناعة الإعراب– الناشر: دار الكتب العلمية بيروت– لبنان– ط: الأولي ١٤٢١هـ– ٢٠٠٠م.
٢٤. أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أبى بكر أحمد الشهرستاني، الملل والنحل– الناشر: مؤسسة الحلبي، بدون.

٢٥. أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، البداية والنهاية- ت: علي شيري- الناشر: دار إحياء التراث العربي- ط: الأولى ١٤٠٨هـ- ١٩٨٨م.
٢٦. أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة- ت: عادل عبد الموجود وآخر- الناشر: دار الكتب العلمية- بيروت- ط: الأولى- ١٤١٥هـ.
٢٧. أبو القاسم الحسن بن بشر الآمدي، الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري- ت: السيد أحمد صقر- الناشر: دار المعارف- الطبعة الرابعة- سلسلة ذخائر العرب- (٢٥).
٢٨. أبو القاسم الطبراني، سليمان بن أحمد بن أيوب اللخمي، المعجم الكبير- ت: حمدي بن عبد المجيد السلفي- دار النشر: مكتبة ابن تيمية- القاهرة- ط: الثانية.
٢٩. أبو القاسم خلف بن عبد الملك بن مسعود بن بشكوال الخزرجي الأنصاري الأندلسي، غوامض الأسماء المبهمة الواقعة في متون الأحاديث المسندة- ت: عزالدين علي، وآخر- الناشر: عالم الكتب- بيروت- ط: الأولى، ١٤٠٧هـ.
٣٠. أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله، ابن عساكر، تاريخ دمشق- ت: عمرو العمروي- الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر، عام النشر: ١٤١٥هـ- ١٩٩٥م.
٣١. أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب الكلبي، نسب معد واليمن الكبير- ت: ناجي حسن- الناشر: عالم الكتب- مكتبة النهضة العربية- ط: الأولى، ١٤٠٨هـ- ١٩٨٨م.
٣٢. أبو بكر الأنباري محمد بن القاسم بن محمد بن بشار، الزاهر في معاني كلمات الناس- ت: حاتم صالح الضامن- الناشر: مؤسسة الرسالة- بيروت- ط: الأولى، ١٤١٢هـ.
٣٣. أبو بكر الأنباري، المذكر والمؤنث- ت: محمد عبد الخالق عضيمة- الناشر: مصر- وزارة الأوقاف- المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية- لجنة إحياء التراث، سنة النشر: ١٤٠١هـ- ١٩٨١م.
٣٤. أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي، جمهرة اللغة- ت: رمزي منير بعلبكي- الناشر: دار العلم للملايين- بيروت- ط: الأولى، ١٩٨٧م.
٣٥. أبو جعفر البغدادي، محمد بن حبيب بن أمية بن عمرو الهاشمي، المحبر- ت: إيلزة ليختن شتيتر، الناشر: دار الآفاق الجديدة- بيروت.
٣٦. أبو جعفر الفهرى، شهاب الدين أحمد بن يوسف بن على بن يوسف اللّبلي، تحفة المجد الصريح في شرح كتاب الفصيح- ت: عبد الملك الثبيتي- الناشر: جامعة أم القرى- مكة المكرمة، سنة النشر: ١٤١٨هـ- ١٩٩٧م.

(ISSN: 2536- 9555)

٣٧. أبو حاتم سهل بن محمد بن عثمان الجشمي السجستاني، كتاب المعمرين من العرب، وطرف من أخبارهم وما قالوه في منهى أعمارهم– الناشر: مطبعة السعادة، مصر، الطبعة الأولى، ١٣٢٣هـ– ١٩٠٥م.
٣٨. أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان الأندلسي، البحر المحيط في التفسير– ت: صدقي محمد جميل– الناشر: دار الفكر– بيروت– ط: ١٤٢٠هـ.
٣٩. أبو حيان، ارتشاف الضرب من لسان العرب– ت: رجب عثمان– الناشر: مكتبة الخانجي بالقاهرة– ط: الأولى، ١٤١٨هـ– ١٩٩٨م.
٤٠. أبو حيان، التذييل والتكميل في شرح كتاب التسهيل، تحقيق: حسن هنداوي– الناشر: دار كنوز إشبيليا بالرياض– ط: الأولى، (١٤١٨– ١٤٤٥هـ)– (١٩٩٧– ٢٠٢٤م).
٤١. أبو حيان التوحيدي، علي بن محمد بن العباس، الإمتاع والمؤانسة– الناشر: المكتبة العنصرية، بيروت– ط: الأولى، ١٤٢٤هـ.
٤٢. أبو سعيد السيرافي الحسن بن عبد الله بن المرزبان، شرح كتاب سيبويه، تحقيق: أحمد مهدلي، وآخر– الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان– ط: الأولى، ٢٠٠٨م.
٤٣. أبو عباس أحمد بن عبد المؤمن بن موسى القَيْسي الشُّريشي، شرح مقامات الحريري– الناشر: دار الكتب العلمية– بيروت ط: الثانية، ٢٠٠٦م– ١٤٢٧هـ.
٤٤. أبو عبد الله محمد بن سعد، المعروف بابن سعد، الطبقات الكبرى– ت: محمد عبد القادر عطا– الناشر: دار الكتب العلمية– بيروت– ط: الأولى، ١٤١٠هـ– ١٩٩٠م.
٤٥. أبو عبيد الله محمد بن عمران المرزباني، معجم الشعراء– ت: الأستاذ الدكتور ف. كرنكو– الناشر: مكتبة القدسي– دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان الطبعة: الثانية، ١٤٠٢هـ– ١٩٨٢م.
٤٦. أبو على أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقي الأصفهاني، الأزمنة والأمكنة– الناشر: دار الكتب العلمية– بيروت– ط: الأولى، ١٤١٧هـ.
٤٧. أبوعلى أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقي الأصفهاني، شرح ديوان الحماسة– ت: غريد الشيخ– الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان– ط: الأولى، ١٤٢٤هـ– ٢٠٠٣م.
٤٨. أبو على الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي، العمدة في محاسن الشعر وآدابه– ت: محمد محيي الدين عبد الحميد– الناشر: دار الجيل– ط: الخامسة، ١٤٠١هـ– ١٩٨١م.
٤٩. أبو علي القالي، إسماعيل بن القاسم بن هارون بن عيسى، الأمالي– ت: محمد عبد الجواد– الناشر: دار الكتب المصرية– ط: الثانية، ١٣٤٤هـ– ١٩٢٦م.

٥٠. أبو محمد عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي الحلبي، سر الفصاحة- الناشر: دار الكتب العلمية- ط: الأولى ١٤٠٢هـ- ١٩٨٢م.
٥١. أبو منصور ابن الجواليقى، موهوب بن أحمد بن محمد بن الخضر بن الحسن، شرح أدب الكاتب لابن قتيبة- الناشر: دار الكتاب العربي- بيروت.
٥٢. أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية- ت: أحمد عبد الغفور عطار- الناشر: دار العلم للملايين بيروت- ط: الرابعة ١٤٠٧هـ- ١٩٨٧م.
٥٣. أبو يعقوب السكاكي، يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي، مفتاح العلوم- ت: نعيم زرزور- الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، الطبعة: الثانية، ١٤٠٧هـ- ١٩٨٧م.
٥٤. أبوالفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني- ت: علي عبدالباري- الناشر: دار الكتب العلمية- بيروت- ط: الأولى، ١٤١٥هـ- ١٩٩٤م.
٥٥. أبوهلال العسكري، الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري، الأوائل، الناشر: دار البشير- طنطا- ط: الأولى، ١٤٠٨هـ.
٥٦. أبوهلال العسكري، جمهرة الأمثال- الناشر: دار الفكر- بيروت، بدون
٥٧. أحمد البدوي، من بلاغة القرآن- الناشر: نهضه مصر- القاهرة، عام النشر: ٢٠٠٥م.
٥٨. عبد السلام أحمد الراغب، وظيفة الصورة الفنية في القرآن- الناشر: فصلت للدراسات والترجمة والنشر- حلب- ط: الأولى، ١٤٢٢هـ- ٢٠٠١م.
٥٩. أحمد الشايب، الأسلوب- الناشر: مكتبة النهضة المصرية- ط: الثانية عشرة.
٦٠. أحمد بن إبراهيم بن مصطفى الهاشمي، جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب- ت: لجنة من الجامعيين- الناشر: مؤسسة المعارف- بيروت، بدون.
٦١. الهاشمي، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع- ت: يوسف الصميلي- الناشر: المكتبة العصرية- بيروت.
٦٢. أحمد بن الحسين بن علي بن موسى، دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة- الناشر: دار الكتب العلمية- بيروت'. ط: الأولى- ١٤٠٥هـ.
٦٣. أحمد بن عبد الوهاب بن محمد، شهاب الدين النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب- الناشر: دار الكتب والوثائق القومية- القاهرة- ط: الأولى، ١٤٢٣هـ.

(ISSN: 2536- 9555)

٦٤. أحمد بن علي بن أحمد الفزاري القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء– الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت.
٦٥. أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، معجم مقاييس اللغة– ت: عبد السلام محمد هارون– الناشر: دار الفكر، عام النشر: ١٣٩٩هـ– ١٩٧٩م.
٦٦. أحمد بن محمد الخفاجي المصري، شرح درة الغواص في أوهام الخواص– ت: عبدالحفيظ فرغلي– الناشر: دار الجيل، بيروت– لبنان– ط: الأولى، ١٤١٧هـ– ١٩٩٦م.
٦٧. بدر الدين أبو محمد عبد الله ابن الإمام أبي عبد الله محمد بن فرحون المدني، العدة في إعراب العمدة– ت: مكتب دار الهدى– الناشر: دار الإمام البخاري– الدوحة– ط: الأولى.
٦٨. بدر الدين الدماميني، العيون الفاخرة الغامزة على خبايا الرامزة– الناشر: المطبعة الثمانية– مصر، ١٣٠٣هـ.
٦٩. البقاعي، برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور– الناشر: دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد– الهند– ط: الأولى، (١٣٨٩– ١٤٠٤هـ) (١٩٦٩– ١٩٨٤م).
٧٠. بهاء الدين السبكي، أحمد بن علي بن عبد الكافي، عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، عبد الحميد هنداوي– الناشر: المكتبة العصرية للطباعة والنشر– بيروت– لبنان– ط: الأولى، ١٤٢٣هـ– ٢٠٠٣م.
٧١. تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها– الناشر: عالم الكتب– ط: الخامسة ١٤٢٧هـ–٢٠٠٦م.
٧٢. التنوخي، أبو يعلي عبد الباقي بن أبي الحصين عبد الله بن المحسن، القوافي– ت: عمر الأسعد، وآخر– الناشر: دار الإرشاد– بيروت– لبنان– ط: الأولى، ١٣٨٩هـ– ١٩٧٠م.
٧٣. توفيق برو، تاريخ العرب القديم– الناشر: دار الفكر– ط: إعادة الطبعة الثانية ١٤٢٢هـ– ٢٠٠م.
٧٤. جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن محمد الجوزي، غريب الحديث– ت: عبد المعطي أمين– الناشر: دار الكتب العلمية– بيروت– لبنان– ط: الأولى، ١٤٠٥– ١٩٨٥م.
٧٥. جواد علي، المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام– الناشر: دار الساقي– الطبعة: الرابعة ١٤٢٢هـ– ٢٠٠١م.

٧٦. حازم بن محمد بن حسن، ابن حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء-: محمد الحبيب- الناشر: دار الغرب الإسلامي- بيروت- ط: الثالثة، ١٩٨٦م.
٧٧. حامد عونى، المنهاج الواضح للبلاغة- الناشر: المكتبة الأزهرية للتراث.
٧٨. حسني عبدالجليل يوسف، الأدب الجاهلي قضايا وفنون ونصوص- الناشر: مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة- ط: الأولى: ١٤٢١هـ- ٢٠٠١م.
٧٩. الخطيب القزويني، محمد بن عبد الرحمن بن عمر، أبو المعالي، الإيضاح في علوم البلاغة- ت: محمد عبد المنعم خفاجي- الناشر: دار الجيل- بيروت- ط: الثالثة.
٨٠. ديل كارنيجي، فن الخطابة- الوسام للخدمات الطباعية- عمان- الأردن- الطبعة العربية الأولى، ٢٠٠١م.
٨١. رزق الله بن يوسف بن عبد المسيح بن يعقوب شيخو، مجاني الأدب في حدائق العرب- الناشر: مطبعة الآباء اليسوعيين- بيروت، عام النشر: ١٩١٣م.
٨٢. رمضان عبد التواب- المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي- الناشر: مكتبة الخانجي بالقاهرة- ط: الثالثة ١٤١٧هـ- ١٩٩٧م.
٨٣. الزركشي، أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر، البحر المحيط في أصول الفقه- الناشر: دار الكتبي- ط: الأولى، ١٤١٤هـ- ١٩٩٤م.
٨٤. الزركشي، البرهان في علوم القرآن- ت: محمد أبو الفضل إبراهيم- الناشر: دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي وشركائه- ط: الأولى، ١٣٧٦هـ- ١٩٥٧م.
٨٥. الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، جار الله، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، (الناشر: دار الكتاب العربي- بيروت، الطبعة: الثالثة- ١٤٠٧هـ.
٨٦. الزمخشري، المفصل في صنعة الإعراب- ت: علي بو ملحم- الناشر: مكتبة الهلال- بيروت- ط: الأولى.
٨٧. الأزهري، أبو منصور محمد بن أحمد الهروي، تهذيب اللغة- ت: محمد عوض مرعب- الناشر: دار إحياء التراث العربي- بيروت- ط: الأولى، ٢٠٠١م.
٨٨. سَلَمة بن مُسْلِم العَوْتبي الصُحاري، الإبانة في اللغة العربية- ت: عبدالكريم خليفة، وآخرين- الناشر: وزارة التراث القومي والثقافة- مسقط- سلطنة عمان- ط: الأولى، ١٤٢٠هـ- ١٩٩٩م.
٨٩. سيبويه، عمرو بن عثمان بن قنبر، الكتاب- ت: عبد السلام محمد هارون- الناشر: مكتبة الخانجي- القاهرة- ط: الثالثة، ١٤٠٨هـ- ١٩٨٨م.
٩٠. السيد عمارة، دراسة في نصوص العصر الجاهلي تحليل وتذوق- الناشر: مكتبة المتنبي.

(ISSN: 2536- 9555)

٩١. السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين، الإتقان في علوم القرآن، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم– الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط: ١٣٩٤هـ– ١٩٧٤م.
٩٢. السيوطي، المزهر في علوم اللغة وأنواعها– ت: فؤاد علي منصور– الناشر: دار الكتب العلمية– بيروت– ط: الأولى، ١٤١٨هـ– ١٩٩٨م.
٩٣. السيوطي، همع الهوامع في شرح جمع الجوامع– ت: عبد الحميد هنداوي– الناشر: المكتبة التوفيقية– مصر.
٩٤. شرف الدين الحسين بن عبد الله الطيبي، فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب (حاشية الطيبي على الكشاف)– ت: إياد محمد الغوج– الناشر: جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم– ط: الأولى، ١٤٣٤هـ– ٢٠١٣م.
٩٥. شمس الدين، أبو العون محمد بن أحمد بن سالم السفاريني الحنبلي، لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية لشرح الدرة المضية في عقد الفرقة المرضية– الناشر: مؤسسة الخافقين ومكتبتها– دمشق– ط: الثانية– ١٤٠٢هـ– ١٩٨٢م.
٩٦. شهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب– ت: إحسان عباس– الناشر: دار صادر– بيروت– لبنان– ط: الأولى، ١٩٩٧م.
٩٧. شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في النثر العربي– الناشر: دار المعارف– ط: الثالثة عشرة.
٩٨. الصاغاني، التكملة والذيل والصلة لكتاب تاج اللغة وصحاح العربية– ت: عبد العليم الطحاوي، وآخرين– الناشر: مطبعة دار الكتب– القاهرة.
٩٩. صدر الأفاضل القاسم بن الحسين الخوارزمي، شرح «المفصل في صنعة الإعراب، للزمخشري» الموسوم بـ «التخمير»– ت: عبدالرحمن العثيمين– الناشر: دار الغرب الإسلامي– بيروت– لبنان– ط: الأولى، ١٩٩٠م.
١٠٠. الصفاقسي، تنبيه الغافلين وإرشاد للجاهلين عما يقع لهم من الخطأ حال تلاوتهم لكتاب الله المبين– ت: محمد النيفر– الناشر: مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله.
١٠١. ضياء الدين بن الأثير، نصر الله بن محمد، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر– ت: أحمد الحوفي، وآخر– الناشر: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة– القاهرة.
١٠٢. ضياء الدين، ابن الأثير، الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور– ت: مصطفى جواد– الناشر: مطبعة المجمع العلمي، عام النشر: ١٣٧٥هـ.
١٠٣. عباس حسن، النحو الوافي– الناشر: دار المعارف– ط: الطبعة الخامسة عشرة.

١٠٤. عبد الحميد بن هبة الله بن محمد بن الحسين، الفلك الدائر على المثل السائر– ت: أحمد الحوفي، وآخر– الناشر: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع– الفجالة– القاهرة.
١٠٥. عبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة، البلاغة العربية– الناشر: دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت– ط: الأولى، ١٤١٦هـ– ١٩٩٦م.
١٠٦. عبد الرحمن بن محمد بن عبيد الله الأنصاري، أبو البركات، كمال الدين الأنباري، أسرار العربية– الناشر: دار الأرقم بن أبي الأرقم– ط: الأولى، ١٤٢٠هـ– ١٩٩٩م.
١٠٧. عبد العظيم بن الواحد بن ظافر ابن أبي الإصبع العدواني، تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن– ت: حفني محمد شرف– الناشر: الجمهورية العربية المتحدة– المجلس الأعلى للشئون الإسلامية– لجنة إحياء التراث الإسلامي.
١٠٨. عبد القادر بن عمر البغدادي، خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب– تحقيق: عبد السلام محمد هارون– الناشر: مكتبة الخانجي، القاهرة– ط: الرابعة، ١٤١٨هـ– ١٩٩٧م.
١٠٩. عبد الله بن الطيب المجذوب، المرشد إلى فهم أشعار العرب– الناشر: دار الآثار الإسلامية– وزارة الإعلام الصفاة– الكويت– ط: الثانية سنة ١٤٠٩هـ– ١٩٨٩م.
١١٠. عبد الله بن بَرّي بن عبد الجبار المقدسي المصري، في التعريب والمعرب– ت: إبراهيم السامرائي– الناشر: مؤسسة الرسالة– بيروت.
١١١. عبد الله عبد الجبار– محمد عبد المنعم خفاجي، قصة الأدب في الحجاز– الناشر: مكتبة الكليات الأزهرية، بدون.
١١٢. عبد المتعال الصعيدي، بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة– الناشر: مكتبة الآداب– ط: السابعة عشر: ١٤٢٦هـ– ٢٠٠٥م.
١١٣. عبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن محمد الجويني، إمام الحرمين، البرهان في أصول الفقه– ت: صلاح بن عويضة– الناشر: دار الكتب العلمية– بيروت– لبنان– ط: الأولى ١٤١٨هـ– ١٩٩٧م.
١١٤. عبد المؤمن بن عبد الحق، ابن شمائل القطيعي البغدادي، صفيّ الدين، مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع– الناشر: دار الجيل، بيروت– ط: الأولى، ١٤١٢هـ.
١١٥. عبدالعزيز العتيق، علم العروض والقافية– الناشر: دار النهضة العربية بيروت.

(ISSN: 2536- 9555)

١١٦. عبده الراجحي، التطبيق النحوي– الناشر: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع– ط: الأولى ١٤٢٠هـ– ١٩٩٩م.

١١٧. علي الجندي في تاريخ الأدب الجاهلي– الناشر: مكتبة دار التراث– ط: الأولى، ١٤١٢هـ– ١٩٩١م.

١١٨. علي بن إبراهيم بن أحمد الحلبي، أبو الفرج، نور الدين ابن برهان الدين، السيرة الحلبية– الناشر: دار الكتب العلمية– بيروت– ط: الثانية– ١٤٢٧هـ.

١١٩. علي بن أبي بكر بن علي الهروي، أبو الحسن، الإشارات إلى معرفة الزيارات– الناشر: مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة– ط: الأولى، ١٤٢٣هـ.

١٢٠. علي بن سلطان محمد، أبو الحسن نور الدين الملا الهروي، أدلة معتقد أبي حنيفة في أبوي الرسول عليه الصلاة والسلام– ط: مشهور بن حسن بن سلمان– الناشر: مكتبة الغرباء الأثرية– السعودية– ط: الأولى، ١٤١٣هـ– ١٩٩٣هـ.

١٢١. علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني، كتاب التعريفات– ت: جماعة من العلماء بإشراف الناشر– الناشر: دار الكتب العلمية بيروت– لبنان– ط: الأولى ١٤٠٣هـ–١٩٨٣م.

١٢٢. الفارابي، أبو إبراهيم إسحاق بن إبراهيم بن الحسين، معجم ديوان الأدب– ت: أحمد مختار عمر– طبعة: مؤسسة دار الشعب للصحافة والطباعة والنشر– القاهرة، عام النشر: ١٤٢٤هـ– ٢٠٠٣م.

١٢٣. فاضل صالح السامرائي، معاني النحو– الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع– الأردن– ط: الأولى، ١٤٢٠هـ– ٢٠٠٠م.

١٢٤. القاسم بن علي بن محمد بن عثمان، أبو محمد الحريري البصري، درة الغواص في أوهام الخواص، تحقيق: عرفات مطرجي– الناشر: مؤسسة الكتب الثقافية– بيروت– ط: الأولى، ١٤١٨/١٩٩٨هـ.

١٢٥. القلقشندي، نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب– ت: إبراهيم الإبياري– الناشر: دار الكتاب اللبنانين– بيروت– ط: الثانية، ١٤٠٠هـ– ١٩٨٠م.

١٢٦. المبرد، محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الثمالى الأزدي، المقتضب– ت: محمد عبد الخالق عظيمة– الناشر: عالم الكتب– بيروت.

١٢٧. محمد إبراهيم الفيومي، تاريخ الفكر الديني الجاهلي– الناشر: دار الفكر العربي، الطبعة: الرابعة ١٤١٥هـ–١٩٩٤م.

١٢٨. محمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد أبو زهرة، الخطابة أصولها. تاريخها في أزهر عصورها عند العرب– الناشر: دار الفكر العربي للطباعة والنشر– القاهرة– ط: الثانية، ١٩٨٠م.

١٢٩. أبو زهرة، زهرة التفاسير– دار النشر: دار الفكر العربي.

١٣٠. محمد الخضر حسين، الخطابة عند العرب- ت: ياسر المطيري- الناشر: مكتبة دار المنهاج للنشر والتوزيع- الرياض- ط: الأولى، ١٤٣٣هـ.
١٣١. الخضر حسين، موسوعة الأعمال الكاملة- جمع: علي الرضا الحسيني- الناشر: دار النوادر. سوريا- ط: الأولى، ١٤٣١هـ- ٢٠١٠م.
١٣٢. محمد بن أبي بكر بن عبد الله بن موسى الأنصاري التِّلمساني المعروف بالبُرّي، الجوهرة في نسب النبي وأصحابه العشرة- ت: محمد التونجي- الناشر: دار الرفاعي للنشر والطباعة والتوزيع- الرياض- ط: الأولى، ١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م.
١٣٣. محمد بن الحسن الرضي الإستراباذي، شرح شافية ابن الحاجب، تحقيق: محمد نور الحسن، وآخرين- دار الكتب العلمية بيروت- لبنان- عام النشر: ١٣٩٥هـ- ١٩٧٥م.
١٣٤. محمد بن الطيب الفاسي، شرح كفاية المتحفظ (تحرير الرواية في تقرير الكفاية)- ت: علي حسين البواب- الناشر: دار العلوم للطباعة والنشر، الرياض- المملكة العربية السعودية- ط: الأولى، ١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م.
١٣٥. محمد بن أيدمر المستعصمي، الدر الفريد وبيت القصيد- ت: كامل سلمان الجبوري- الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان- ط: الأولى، ١٤٣٦هـ- ٢٠١٥م.
١٣٦. محمد بن عبد الله بن العباس، أبو الحسن، ابن الوراق، علل النحو- ت: محمود الدرويش- الناشر: مكتبة الرشد- الرياض- السعودية- ط: الأولى، ١٤٢٠هـ- ١٩٩٩م.
١٣٧. محمد بن عرفة الدسوقي، حاشية الدسوقي على مختصر المعاني لسعد الدين التفتازاني- ت: عبد الحميد هنداوي- الناشر: المكتبة العصرية، بيروت.
١٣٨. محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، أبو الفيض، الملقّب بمرتضى، الزَّبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، ت: مجموعة من المحققين- الناشر: دار الهداية- الكويت.
١٣٩. محمد بن محمد بن أحمد، ابن سيد الناس، عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير- ت: إبراهيم محمد رمضان- الناشر: دار القلم- بيروت- ط: الأولى، ١٤١٤- ١٩٩٣م.
١٤٠. محمد بن مصطفى القُوجَوي، شيخ زاده، شرح قواعد الإعراب لابن هشام- ت: إسماعيل مروة- الناشر: دار الفكر المعاصر (بيروت- لبنان)، دار الفكر (دمشق- سورية)- ط: الأولى، ١٤١٦هـ- ١٩٩٥م.

(ISSN: 2536- 9555)

١٤١. محمد بن مكرم بن على جمال الدين ابن منظور، لسان العرب– ت: اليازجي وجماعة من اللغويين– الناشر: دار صادر– بيروت، الطبعة: الثالثة– ١٤١٤هـ.
١٤٢. محمد بن يوسف الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، في سيرة خير العباد– ت: عادل عبد الموجود، وآخر– الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان– ط: الأولى، ١٤١٤هـ– ١٩٩٣م.
١٤٣. محمد رجب البيومي، البيان النبوي– الناشر: دار الوفاء للطباعة والنشر– المنصورة، مصر– ط: الأولى، ١٤٠٧هـ– ١٩٨٧م.
١٤٤. محمد عبد الخالق عضيمة، دراسات لأسلوب القرآن الكريم– الناشر: دار الحديث، القاهرة، بدون.
١٤٥. محمد عبد المنعم خفاجى، الحياة الأدبية في العصر الجاهلي– الناشر: دار الجيل بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٢هـ– ١٩٩٢م.
١٤٦. محمد عبدالعزيز النجار، ضياء السالك إلى ألفية ابن مالك– الناشر: مؤسسة الرسالة– بيروت– لبنان– ط: الأولى، ١٤٢٠هـ– ١٩٩٩م.
١٤٧. محيي الدين ابن الخطيب، محمد بن قاسم بن يعقوب الأماسي، روض الأخيار المنتخب من ربيع الأبرار– الناشر: دار القلم العربي، حلب– ط: الأولى، ١٤٢٣هـ.
١٤٨. مصطفى بن محمد سليم الغلاييني، جامع الدروس العربية– الناشر: المكتبة العصرية، صيدا– بيروت– ط: الثامنة والعشرون، ١٤١٤هـ– ١٩٩٣م.
١٤٩. مصطفى صادق الرافعي، تاريخ آداب العرب– الناشر: دار الكتاب العربي، بدون.
١٥٠. الملا الهروي القاري، شرح الشفا– الناشر: دار الكتب العلمية– بيروت– ط: الأولى، ١٤٢١هـ.
١٥١. منصور بن الحسين الرازي، أبو سعد الآبى، نثر الدر في المحاضرات– ت: خالد عبد الغني محفوظ– الناشر: دار الكتب العلمية– بيروت– لبنان– ط: الأولى، ١٤٢٤هـ– ٢٠٠٤.
١٥٢. الميداني، أبو الفضل أحمد بن محمد بن إبراهيم النيسابوري، مجمع الأمثال، تحقيق: محمد محيى الدين عبد الحميد– الناشر: دار المعرفة– بيروت، لبنان.
١٥٣. ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله، معجم البلدان– الناشر: دار صادر– بيروت– ط: الثانية، ١٩٩٥م.
١٥٤. يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم، الحسيني العلويّ، الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز– الناشر: المكتبة العنصرية– بيروت، ط: الأولى، ١٤٢٣هـ.